الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل –

كلية الآداب واللغات
الرقم التسلسلي.....

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان

بلاغة أسلوب الاستفهام وأبعاده التداولية في سورتي هود ويوسف

مذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي
تخصص: لسانيات عربية

إعداد الطالبة:
مارية دحمان

إشراف الأستاذ:
د. محمد بولخطوط

أعضاء لجنة المناقشة

اسم ولقب الأستاذ	المؤسسة الجامعية	الدرجة العلمية	الصفة
د. الحاج قديدح	جامعة جيجل	أستاذ محاضر أ	رئيســـا
د. محمد بولخطوط	جامعة جيجل	أستاذ محاضر ب	مشرفا ومقررا
د. طارق بولخصايم	جامعة جيجل	أستاذ محاضر ب	مناقشا

السنة الجامعية: 1443هـ- 1442هـ/ 2021-2022م

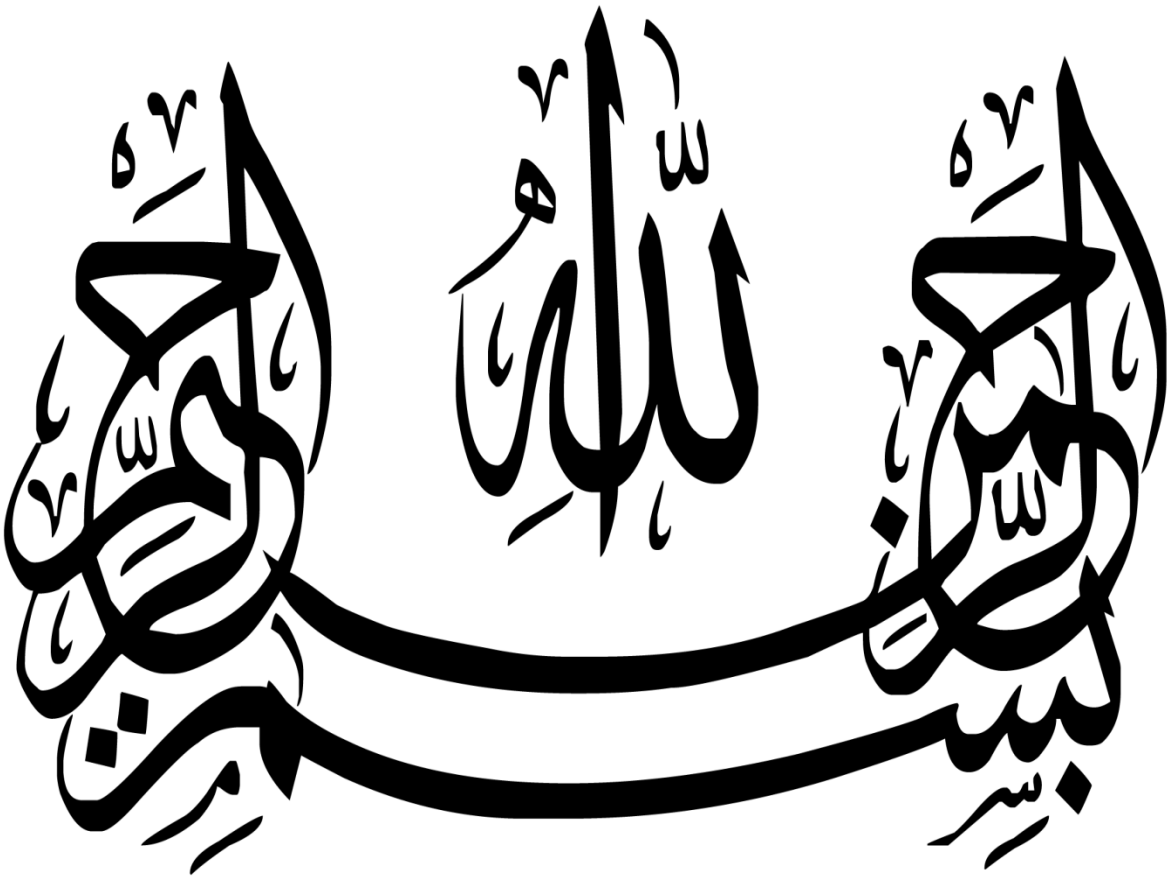
بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والتقدير

الحمد لله العليّ العظيم الذي منّ عليّ بالصحة والعافية...وأفاض عليّ من نعمه وجميل عطائه بأن هداني لأن أسلك طريق العلم...فأكرمني بإتمام هذه المذكّرة...التي أدعو أن يكتبها لي عملاً صالحًا في الدنيا والآخرة

وبعدُ:

فاعترافًا بالجميل، وانطلاقًا من قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (سورة لقمان الآية 12)، ومصداقًا لقول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : " من لم يشكر الناس، لم يشكر الله "(رواه الإمام الترمذي)، أستغلُّ هذه الفرصة لكي أنسب الفضل إلى ذويه... والمعروف لأهله... فأتقدّم بجزيل الشكر ..وعظيم الامتنان والتقدير ..لفضيلة الأستاذ المشرف...الدكتور " محمد بولخطوط "...الذي قبل بالإشراف على هذا العمل أوّلاً... وعلى ثقته التي وضعها بي ثانيًا...ولكلّ ما قدّمه لي من وقت وتوجيه ونصح وإرشاد ...فكانت توجيهاته القيّمة وأسلوبه المميّز في متابعة البحث عونًا لي على تصويبه وإخراجه على ما هو عليه...فبارك الله في جهده وتفانيه وإخلاصه...

والشكر موصول لأعضاء لجنة المناقشة الكرام...على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الدراسة

كما لا يسعني في هذا المقام...إلاّ أن أشكر جميع أساتذة قسم اللغة والأدب العربي بجامعة جيجل...إيمانًا بفضلهم واعترافًا بجميلهم...على كلّ ما تعلمناه منهم وأفادونا به...وألهمونا إيّاه...طيلة هذه السنوات...شكر الله سعيهم...وبارك في جهودهم ...وجزاهم عنّا كل خير...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الإهداء

إلى أمي وأبي ...

قرّة عيني...ونبض قلبي ...وطريقي إلى الجنة..

وإلى أختيّ العزيزتين.. وأخي الغالي..

سندي...ودعمي..

إلى زميلاتي وزملائي في الدفعة

خيرُ النّاس...وأطيبهم

إلى كلّ الذين شغفتهم اللغة العربية حُبًّا..

أقدّم هذا العمل المتواضع سائلةً الله العليّ العظيم الرضى والقبول

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين والمبعوث رحمة للعالمين، محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ...

إنّ القرآن الكريم معجزة الله الخالدة في الوجود، ودستور الهداية الذي لا يتغير بتغير الناس والزمان، ومنهج الحياة الوحيد الذي من اتّبعه لا يضلّ ولا يشقى، وقد تشرّفت اللغة العربية به إذ أُنزل بها دون اللغات جميعاً فزادها ذلك مكانةً وعلوًّا كبيرين، فقد استطاعت على إثر مرونتها وشموليتها واتساعها، أن تحتضن معانيه وأسراره، وتمثّل سحره وبيانه أفضل تمثيل، لثراء ألفاظها، ودقّة تراكيبها، وتنوّع أساليبها، فعكف علماء العربية وعلومها جمعاء على تدارس هذا الكتاب العظيم الذي أُنزل بهذه اللغة، بدءًا من تدبّر ألفاظه، واستخراج معانيه، الظاهر منها والخفيّ، واستكناه أسراره، وتلمّس مقاصده ومراميه، ووجدوا أنّ له تأثيرًا وسحرًا لا ينكشف لغير المتدبّر في آياته، فأفردوا لذلك كُتبًا في النحو تقيهم شرّ الوقوع في الخطأ واللحن حين قراءته، وأخرى في التفسير والفقه يضمّنونها شروحاتهم وتأويلاتهم لآياته، وأخرى في البلاغة والبيان يبيّنون فيها أسرار النظم، والدلالات الخفيّة التي تدل عليها مقامات الكلام، ذلك أنّ النصّ القرآني يزخر بشتى أساليب القول وأفانينه، وهذا يدخل في نظمه المعجز، الذي تنّوعت طرقه، فكان أشدّ وقعًا على القلب والنفس، ومن بين هذه الأساليب التي كان لها حضورٌ طاغٍ في البناء القرآني، أسلوب الاستفهام، الذي يُعدُّ من أدقّ مباحث الإنشاء الطلبي، وأكثرها قدرة على التعدد في المعاني والإيحاءات، وأشدُّ الأساليب التوجيهية تأثيرا في المتلقي أثناء عملية التواصل اللغوي.

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة موسومة بـ: **" بلاغة أسلوب الاستفهام وأبعاده التداولية في سورتي هود ويوسف "**، محاولة الوقوف على الأغراض البلاغية التداولية التي تكمن وراء الخطاب الاستفهامي، ذلك أن المتتّبع لأساليب الاستفهام الواردة في القرآن الكريم، يجد أن أغلبها تخرج من معانيها الأصلية إلى أغراض أخرى تداولية، تختلف باختلاف السياقات، ومقاصد المتكلمين من الخطاب، فكان مناط هذه الدراسة هو استثمار مفاهيم التداولية وآلياتها، في رصد وتحليل الاستفهام البلاغي الوراد في هذين السورتين.

وينطلق البحث من إشكالية أساسية هي:

إلى أيّ مدى يستجيبُ الخطاب القرآني للطّرح التداولي؟ وكيف تساهم النظرية التداوليّة في الوقوف على المقاصد الخفيّة لبعض أساليبه؟ وكيف يمكن الكشف عن أغراض الاستفهام البلاغيّ من خلال تطبيق آليّات التحليل التداوليّ؟

حيث تنبثق عن هذه الإشكالية، مجموعة من التساؤلات الفرعية مفادها:

– ما المقصود بأسلوب الاستفهام؟ وما هي أهمّ الإضافات التي قدّمها البلاغيون في دراستهم له ضمن مباحث علم المعاني؟

– ماذا نعني بالتداولية؟ وكيف يمكن أن نتناول هذا الأسلوب الإنشائي ضمن إحدى أهمّ نظرياتها المتمثلة في نظرية الفعل الكلامي والاستلزام الحواري؟

– فيم تكمن المعاني التداولية التي خرج إليها الاستفهام في كل من سورة " هود "و" يوسف"؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، تطلّب الأمر تقسيم البحث إلى مقدمة ومدخل وفصلين، الأول نظري والثاني تطبيقي، يتبع كل هذا خاتمة كانت تحصيلاً لما تمّ التوصل إليه من نتائج، وتفصيلها كالآتي:

في المدخل، تطرّقنا للحديث عن أسلوب الاستفهام عند النحويين، بعدّه أصلاً في النحو قبل أن يكون مبحثًا من مباحث علم المعاني الذي ينتمي إلى علم البلاغة، فقمنا بذكر بعض أقوال النحاة فيه، وتبيان أدواته وما تختصّ به، وصدارتها في الكلام، ثمّ أهميته.

وأما الفصل الأول فعنوناه بـ: أسلوب الاستفهام في الدرس البلاغي والبحث التداولي، وقسمناه إلى مبحثين اثنين؛ الأول أفردناه للاستفهام عند البلاغيين، فقمنا أوّلاً بتعريف علم البلاغة، وما له من أهمية، ثمّ ذكرنا جهودهم في تقصّي هذا الأسلوب، وعدّدنا أشهر وأبرز المعاني التي يخرج إليها، إضافة إلى جمالياته، وأمّا المبحث الثاني فجعلناه للحديث عن التداولية، بدءًا من تعريفها، وظروف نشأتها وتطورها، ثم بيان مهامها وأهميتها، وموقع الأسلوب الاستفهامي ضمن نظرية أفعال الكلام، والاستلزام الحواري، بعدّه فعلا كلاميا مباشر.

في حين جاء الفصل الثاني بعنوان: مقاربة تداولية للاستفهام البلاغي في سورتي " هود " و"يوسف "، وقد اشتمل على مبحثين هو الآخر، خصّصنا الأول للتعريف بكلتا السورتين، وذكر فضلهما وأسباب نزولهما، ومناسبة كل واحدة للسورة التي قبلها، وعرضٌ موجز لأهم المقاصد والفوائد التي تضمنتها كلّ واحدة منها، وأما

الثاني فعبارة عن دراسة تطبيقية، رصدنا فيه جميع الآيات التي خرج فيها أسلوب الاستفهام إلى معانٍ بلاغية، فوقفنا على السياق العام لكل آية، ثم قمنا بتحليل بنية الفعل الكلامي بصيغة الاستفهام، واستنطاق بعده التداولي ودلالته الخفية، ثم أثره على متلقي الخطاب.

وأنهينا البحث بخاتمة، تضمّنت أهم النتائج التي خلصنا إليها من خلال هذه الدراسة.

وقد اعتمدنا على المنهج الوصفي مع استعمالنا لآليات التحليل التداولي، مقدّرين أنّ ذلك الأنسب لمثل هذه المواضيع.

كما تستمدُّ هذه الدراسة أهميتها من كونها مرتبطة بأقدس النصوص، وهو النص القرآني، الذي يمثل أساس اللغة العربية، ومرجعها الثابت والأزلي، إضافة إلى أنها حاولت أن تمزج بين المعالجة اللغوية التّراثية للأسلوب الاستفهامي، ممثلةً في الدرس البلاغي العربي، والمعالجة اللغوية الحديثة ممثلة في الدرس التداولي الغربي.

وعن اختيار الموضوع، فكان لأسبابٍ عدّة، الذاتية منها والموضوعية:

فأمّا الأولى، فتعود إلى اهتمامنا بالدراسات اللغوية عامة، والبلاغية والتداولية خاصة، ويقيننا التامّ أنّ حلاوة القرآن الكريم وأثره العظيم في الإنسان، لا يُستشفُّ إلاّ بتدبّر معانيه، والنّظر إلى ما وراء الآيات من معان ومقاصد ومكنونات؛ إذ لطالما تساءلنا عن قلّة تأثّرنا بآيات القرآن الكريم، فوجدناه من قلة الفهم والتدبّر، فكانت رغبتنا شديدة في الكشف عن بعض المعاني الحقيقية لواحدٍ من أكثر الأساليب شيوعًا سواءً في الخطاب القرآني، أو في الخطابات المتداولة في الحياة اليومية لمستعملي اللغة، الذي لا يمكن الاستغناء عنه في العملية التواصلية التبليغية.

وأمّا الدوافع الموضوعية، فترجع إلى الرغبة في الاستفادة من الآليات التداولية الحديثة، المختصّة بتحليل الخطابات، وتطبيقها على الخطاب القرآني، كونه متجدد المعاني، وخفي المقاصد والأغراض، وعن اتّخاد سورتي " هود " و"يوسف " كمدوّنة للبحث، فيعود إلى تنوع سياقاتها كونهما تمثلان خطابا قصصيا بامتياز، لعب الاستفهام فيه دورًا بالغ الأهمية في بناء حلقة الحوار بين الأنبياء وأقوامهم في سورة هود، أو ما دار بين " يوسف "عليه السلام وإخوتـه، أو بينه وبين امرأة العزيز، أو بينه وبين السجينين، أو ما دار بين" يعقوب "عليه السلام وأبنائه، أو ما دار بين الإخوة أنفسهم، في سورة يوسف.

كما هدفت هذه الدراسة في مجملها إلى الخوض في دراسة الخطاب الاستفهامي البلاغي، والوقوف على المقاصد الدقيقة التي أراد المولى عزّ وجل تبليغها من خلاله، ومن ثمّ بيان دوره في التبليغ والتأثير والحجاج والإقناع.

وبغية تحقيق هذه الأهداف، اعتمدنا على مجموعة من المراجع القيّمة، متمثّلة في كتب النحو والبلاغة بخاصة: الكتاب لسيبويه، مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري، دلائل الإعجاز للجرجاني، مفاتيح العلوم للسكاكي، الاستفهام النحوي والبلاغي لقطبي الطاهر، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين لاسماعيل الأوسي، وأخرى مرتبطة بالدراسات التداولية وتحليل الخطاب، من مثل: التداولية عند العلماء العرب لمسعود صحراوي، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر لمحمود نحلة، إلى جانب مجموعة من التفاسير أهمها تفسير الكشاف للزمخشري، تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، كانت لنا العون الأكبر في الجانب التطبيقي.

وفيما يخصّ الدراسات السابقة لهذا الموضوع، فقد تجسّدت في بعض الإسهامات المهتمة بتداولية الخطاب القرآني، نذكر منها البحث الموسوم بـ: " أساليب الاستفهام في البحث البلاغي وأسرارها في القرآن الكريم " وهي أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، لصاحبها " محمد شريف" مسجّلة بالجامعة الإسلامية العالمية في باكستان (إسلام آباد)، و" أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين – دراسة نحوية بلاغية تداولية–" من إعداد "ناغش عيدة" وهي مذكرة لنيل شهادة الماجستير، مسجّلة بجامعة مولود معمري في الجزائر (تيزي وزو).

وعن الصعوبات التي اعترضتنا، فتمثّلت في التقارب المعلوماتي بين المراجع؛ إذ وجدنا المادة المعرفية تكاد تتكرر في كل مرجع، إضافة إلى قلة الدراسات التطبيقية التي تناولت أسلوب الاستفهام من المنظور التداولي.

وختامًا، أشكر الله تعالى على توفيقه لي، وتيسيره لكل عسير، فالحمد لله أوّلاً وآخرًا، كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر، وصدق الدعاء للأستاذ المشرف على هذا البحث، الدكتور " محمد بولخطوط " على كل ما قدّمه لي من إرشادٍ حسن، ونصحٍ خالص، وتوجيهٍ صائب، وعلى ما لقيت منه من رحابة صدرٍ، وتفانٍ وإخلاص في العمل، ونُبلٍ في التعامل، بارك الله في جهده وجزاه عني كل خير.

مدخل نظري: الاستفهام في عُرف النّحاة

كانت ولا تزال اللغة العربية لغة الإسلام الخالدة، بها نزل القرآن الكريم، وهي باقية ما بقي الزمان، فلا تضمحلّ ولا تزول لاحتمائها بالقرآن، أحبَّها أهلها وشمّر غيرهم عن سواعدهم لتعلمّها، وبذل العلماء أقصى الجهود في الدّفاع عنها، وحمايتها من وباء اللّحن، الذي استقرّ على ألسنة الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام، وتسلّل إلى ألسنة فصحاء العرب، ولأن الانحراف فيها يستلزم الضلال في الدّين، فقد وجب الدفاع عنها كما وجب الدفاع عنه، وعلى إثر ذلك ظهرت الحاجة الشديدة إلى وضع رسم للعربية يتبعه الناس، ويقيهم شرّ الوقوع في الخطأ، فنشأ "علم النحو"، الذي سبق إخوته من علوم العربية في الظهور لسبق بواعث نشأته، دينية كانت أو غير دينية.

ومما قيل في تعريفه، ما ذكره " ابن السراج" (316ه) بأنّ « النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب".[1] وهو عند "ابن جني " (392ه) «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها...».[2]

فهو إذن محاكاة العرب في طريقة كلامهم، وعلمٌ يعرفنا بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية لتأدية المعاني على الوجه الصحيح، ومن هنا تبرز أهمية علم النحو بعدّه دعامة العلوم العربية كلها، لذلك ليس من الغريب أن يصفه اللغويون القدامى بأنه قانون اللغة وميزان تقويمها، فممّا قيل في أهميته، قول "الأصمعي عبد الملك" اللغوي(216 ه) : « إنّ أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله عليه الصلاة و السلام فيما معنى الحديث أن من كذب على الرسول متعمدا، فلينتظر مقعده من النار».[3] وهذا ما يفسر أنه لم يكن إبّان ظهوره علما مستقلا عن مسائل علوم العربية، وإنما كان جزءا منها، فمن مظاهر ذلك أن كتاب "سيبويه" (180ه) ليس كتاب نحو فقط وإنما هو كتاب صرف وأصوات وبلاغة ، وهو عنده وعند غيره

(1)– أبو بكر محمد بن السري بن سهل ابن السراج: الأصول في النحو العربي، ج1، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1417 ه/1996م، ص 35

(2)– أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ج1، تح: محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، دط، 1373ه/1952م، ص 79.

(3)– شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، تح: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط11، 1417ه/1996م، ص 178.

من النحاة القدامى، لم يقتصر على الإعراب والبناء وبيان الأوجه المختلفة للفظ من الناحية الإعرابية، وإنما كان علما يؤدي إلى فهم كلام العرب، وعدم اللحن في أداءه.

ومعلوم أن الكلام في العربية قسمان: خبرٌ وإنشاء، والأساليب الإنشائية بدورها تنقسم إلى قسمين:

الطلبية و غير الطلبية، والمراد من الإنشاء غير الطلبي « ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ».[1] وبالإنشاء الطلبي « ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ».[2] وهو ينقسم إلى خمسة أقسام هي: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء.

والقسم الذي سنخصه بالبحث هو الاستفهام؛ إذ يعدّ من أكثرها استعمالا وأهمية، ويراد به طلب الفهم ويكون بحروف وأسماء معينة، لكل منها معنى تختص به عن غيرها، فضلا عن المعنى الذي تشترك فيه كلها وهو الاستفهام.

وفيما يلي سنحاول أن نعرض لأهم الملاحظات والأقوال التي سجّلها نحاة العربية حوله سلفًا وخلفًا.

أوّلاً– تعريف الاستفهام:

أ–في اللغة:

مشتق من الفهم، ومعناه: العلم والمعرفة بالقلب، يُقال: فهِمه فَهْمًا وفَهَمًا وفَهَامَةً أي: علِمه وعَقَله.[3] وهو على وزن (استفعال) بحيث أن (السين) و(التاء) للطلب، وعليه فالاستفهام: طلب الفهم.

ويعرّفه " الزبيدي " (1205هـ) في "تاج العروس" قائلاً: « و(استفهمني) الشيء: طلب مني فهمه (فأفهمته) إيّاهُ. و(فهّمته): جعلته يفهمه. و(تفهّمه): إذا فهمه شيئًا بعد شيء ».[4]

---

[1]– أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دس، ص 69.

[2]– المرجع نفسه: ص 70.

[3]– محمد بن مكرم بن علي بن منظور: لسان العرب، مج7، ج7، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ /2005م، مادة "ف.هـ.م".

[4]– محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض مرتضى الزّبيدي: تاج العروس، مج17، ج33، تح: عبد المنعم إبراهيم وكريم محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م، مادة "ف.هـ.م".

واستفهم عن الأمر: سأل واستفسر واستوضح فهو مستفهم. وفَهِمٌ وفهِيم أي: حسن الفهم. وفهَّامة: شديد الفهم[1]، وأفهمه الأمر: أحسن تصويره له. واستفهم من فلان عن الأمر: طلب منه أن يكشفه عنه.[2]

نلاحظ أن مجموع هذه التعريفات اللغوية لا تخرج في مجملها عن معنى واحد للاستفهام، والمتمثّل في طلب الفهم والاستجواب.

ب- في الاصطلاح:

قلنا بأن الاستفهام هو طلب الفهم؛ أي طلب الكشف عن شيء غير جليّ لدى المستفهم، قصد التوضيح والبيان. وقد أورد له النحاة عدة تعريفات؛ إذ يعرفه "ابن هشام الأنصاري " (761 هـ) بقوله أنه « حقيقة طلب الفهم ».[3] وفي " الصاحبي " لـ "ابن فارس" (395هـ) هو « طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل»[4].

ويعرفه "السيوطي" (911هـ) بأنه « طلب المتكلم من مخاطبه أن يحصل في الذّهن ما لم يكن حاصلا عنده مما سأله عنه »[5]. أي أن المستفهم يحصل له باستفهامه معنًا جديدا لم يكن لديه من قبل.

ونجد المعنى ذاته عند المحدثين، إذ يرد على أنه أحد أساليب نظم الجملة ويدخل في دائرة الطلب، حيث يعرّفه "فضل حسن عباس" بقوله: « هو طلب الفهم، وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم به ».[6]

كما يصفه "عبده الراجحي" قائلا: « الاستفهام من أكثر الوظائف اللغوية استعمالا، لأن الاتصال الكلامي يكاد يكون حوارا بين مستفهم و مجيب ».[7]

---

[1]- ينظر : أحمد مختار عمر : معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 3، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1429هـ / 2008م، مادة " ف.هـ.م".

[2]- ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 1425هـ/2004م، مادة"ف.هـ.م".

[3]-عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج1، تح: مازن المبارك ومحمد حمد الله، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 1384هـ/ 1964م، ص 5.

[4]- أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: مصطفى الشويمي، مطبعة بدران، بيروت، لبنان، دط، 1384هـ/1963م، ص181.

[5]- عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دس، ص70.

[6]- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، إربد، الأردن، ط4، 1417هـ/ 1997 م، ص167.

[7]- عبده الراجحي: التطبيق النحوي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ/2004م، ص346.

فالاستفهام إذن في اصطلاح النحاة هو طلب الفهم، وهو أحد التراكيب اللغوية التي تنتمي إلى دائرة الطلب، يطلب به العلم بحكم كان مجهولا أو في عداد المجهول لدى السائل، ويحصل ذلك بواسطة إحدى أدواته.

ثانيا: أدواته:

تبلغ أدوات الاستفهام في العربية اثنتا عشرة أداة، وهي في عُرف النحاة تنقسم إلى أحرفٍ وأسماءٍ، فأمّا الحروف فهي: الهمزة وهل. وأما الأسماء فهي: من، ما، ماذا، أي، كم، كيف، متى، أيان، أين، أنّى.[1]

وبحسب الطلب، تنقسم إلى ما يُطلب به التصور والتصديق معا، ما يطلب به التصديق فقط، وما يُطلب به التصور فحسب. وكلّها مبنية ماعدا أيّ.[2]

1_ الحروف: وهما اثنان، الهمزة وهل.

أ- الهمزة:

عدّها النحاة أمّ الباب، فليس للاستفهام في الأصل باب غيرها، وأما بقية الأدوات فأفادت معناه لتضمنها معنى الهمزة، والأصل فيها ألاّ يليها إلا الفعل، إلا أنهم توسعوا فيها فأجازوا مجيء الاسم بعدها لأصالتها في هذا الباب.[3] فيجوز قولنا: أنجح علي؟ وأعليّ نجح؟ وهي حرف من حروف المعاني تدلّ على الجملة المنفية أيضا نحو قولنا: ألم يحضر علي؟ وترد لطلب التصور والتصديق معا.

ومن جملة خصائصها: [4]

-جواز دخولها على الواو والفاء وثمّ، من حروف العطف، فهي تسبق هذه الحروف، كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آالآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ يونس:51.

---

[1]- ينظر: أبي الحسن علي بن عيسى الرّماني: معاني الحروف، تح: عرفان حسونة الدمشقي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دس، ص1. وقطبي الطاهر: الاستفهام النحوي: ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1415هـ/ 1994م، ص 7.

[2]- ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ج1، ص15. والسيوطي: الأشباه والنظائر، ص71.

[3]- ينظر: سيبويه: الكتاب، ج1، ص99.

[4]-ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ج1، ص ص 8-9. وقطبي الطاهر: الاستفهام النحوي، ص 8.

-تأتي للتصور، أي طلب تعيين المفرد، إذا كان المستفهم عالما بالنسبة التي يتضمنها الكلام بيد أنه متردد بين شيئين. وجواب الاستفهام حينها يكون بالتعيين. كقولك: أعلي قائم أم عمرو؟ .وتكون لطلب التصديق، أي طلب تعيين النسبة وذلك إذا كان المستفهم مترددا في ثبوتها أو نفيها، والجواب حينها يكون بنعم و بلا في المثبت، وأما المنفي، فيُجاب عليه ببلى و بنعم.[1]

- جواز دخولها على الشرط أو ما يشبهه. نحو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ فصلت-40-

ب- هل:

وهي الحرف الثاني من حروف الاستفهام بعد الهمزة، تدخل على الأسماء والأفعال.[2]وهي أداة مختصة بطلب التصديق؛ إذ لا يستفهم بها إلا عن مضمون الجملة [3]، ومما نصّ عليه النحاة في أبرز خصائصها ما يلي:[4]

-عدم دخولها على النفي، وبالمقابل يراد بالاستفهام بها النفي. مثل: هل يقدر على هذا غيري؟ أي: لا يقدر.

-تأتي للدلالة على التصديق دون التصور، وعلّة ذلك أنه لا يستفهم بها عن المفرد، أي أنه يستفهم بها عن النّسبة.

-لا تدخل على الشّرط، فلا يقال: هل إن سافر عمرو سافر زيد؟

-مجيئها بمعنى قد، كقوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**﴾ الإنسان-1-

- اختصاصها بزيادة مِن معها، فقد نصّ النحاة على أن زيادة مِن في الاستفهام تكون مع الأداة هل فقط.[5] مثل قوله عزّ وجل: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**﴾ الملك-3-

---

[1]- ينظر: قيس اسماعيل الأوسي: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، بيت الحكمة، بغداد، العراق، دط، دس، ص 325.

[2]- ينظر: قطبي الطاهر: المرجع السابق، ص50.

[3]- قيس اسماعيل الأوسي: المرجع السابق، ص361.

[4]-عبد الكريم محمود يوسف: أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم- غرضه وإعرابه -مطبعة الشام، الشام، سوريا، ط1، 1421هـ/2000م، ص10.

[5]- قيس إسماعيل الأوسي، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، ص 358.

2_**الأسماء**: وعددها عشرة ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :[1]

– ما يكون منها عير ظرف وهي: مَن، ما، ماذا، كم، كيف.

– ما يكون منها ظرفا وهي: متى، أيّان، أين، أنّى.

–ما يكون ظرفا وغير ظرف وهي: أيّ.

وجميعها يُطلب بها التصور، وهذا هو تفصيلها:

أ–مَن: اسم يُستفهم به عن العاقل غالبا [2]، وتستعمل للمفرد والمثنى والجمع، وللمذكّر والمؤنث.[3]ويستفهم بها عن النكرة وعن المعرفة، فإن استفهم بها عن النكرة وجب أن يُؤتى بالضمير بينهما. نحو قوله تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾ هود–93–، لأنه لا يقال مثلا: من قائم؟ [4]وإن استفهم بها عن معرفة، فلا يخلو أن يكون عَلَمًا أم لا، فإن كان علما، ذهب بعضهم إلى ذكر المستفهم عنه رغم أن القاعدة العامة نقول أن الاسم المعرفة إذا أُستفهم عنه لا يُحكى.[5] ومثاله قول الشخص: جاءني محمد، قال المستفهم: من محمد؟

وإن أُستفهم بها عن صفة العَلم، قيل أنه تدخلها الألف و اللّام وياء النّسب، فإذا قال أحدهم: جاءني محمد، يقال له: المنيُّ؟، وإذا قال: جاءني محمد وأحمد، قيل: المنيّان؟

---

[1]– عبد السلام هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 1421هـ /2001م، ص18.

[2]– ينظر: ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ص127.

[3]– أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: حروف المعاني، تح: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1406هـ/1986م، ص55.

[4]– قطبي الطاهر: الاستفهام النحوي، ص78.

[5]– ينظر: قطبي الطاهر: الاستفهام النحوي، ص82.

كما ذهب النحاة إلى أن الاستفهام بـ"من"، قد يفيد معنى النفي، ومثاله قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.آل عمران-135- ومعناه: ليس يغفر الذنوب إلا الله سبحانه و تعالى.[1]

كما تستعمل من الاستفهامية مع (ذا)، يقول "ابن هشام": « وظاهر كلام جماعة أنه يجوز في منذا لقيت؟ أن تكون "من"و"ذا" مركبتين، كما في قولك: ماذا صنعت؟ »[2]. فيُستفهم بهما معا.

ب–ما: اسم مبهم، يقع على كل شيء.[3] أي أنه يُستفهم بها عن كلّ ما لا يعقل من حيوان أو نبات أو جماد أو غيرها، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ طه-17-.وعن صفات ما يعقل، ومنه قولنا مثلا: ما هشام؟ فالسؤال فيه عن صفات تميزه أو يُعرف بها، كأن تجيب فتقول: هو فقيه أو هو عالم.

وأُطلق عليها وصف المبهم، لأنها تنصرف إلى كل ما كان مجهول الماهية والحقيقة، لأنه لا يستطيع المتكلم أن يميزه فيعبر عنه بما يقتضيه، لذلك يُعبّر عنه بها لعموميتها وإبهامها.

وقد ذهب النحاة إلى أنّ ألف ما الاستفهامية تُحذف إذا اتّصل بها حرف جرٍّ.[4] وذلك تخفيفا لكثرة الاستعمال أو للتفريق بينها وبين ما الموصولة، فلهذا حُذفت في نحو قوله عزّ وجل: ﴿ **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1)**﴾ النّبأ-1- وثبتت في قوله ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ**﴾ سورة ص-75-، لأنها ما الموصولة، وهذا لأن اللّبس كما يقول النحاة واقع بينهما في الجرّ، لأن دخول حرف الجرّ عليهما يُذهب بقرينة الرّتبة التي تميّز ما الاستفهامية عن الموصولة.

جـ– ماذا: وهي اسم مركّب من "ما" و"ذا"، كل منهما صارت جزءا لـ"ماذا"، ولهذا لا تُحذف ألف ما إذا جُرّت ماذا كما هو الحال في اسم الاستفهام ما إذا اتّصل بـ ذا.[5] ومثال ذلك أن العرب كانت تسأل فتقول: عمّاذا تسأل؟ فقد اتصلت ماذا بحرف الجر ولم تُحذف ألفها وإلا لقالوا: عمّ ذا تسأل، ولكنهم إذ ذاك جعلوا ما

---

(1)- علي بن محمد الهروي: الأزهية في علم الحروف، تح: عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، ط2، 1413هـ/ 1993م، ص105.

(2)- ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ج4، ص197.

(3)- ينظر: سيبويه: الكتاب، ج4، ص228.

(4)- قطبي الطاهر: المرجع السابق، ص19.

(5)- سيبويه: الكتاب، ج2، ص ص 417-418.

وذا اسما واحدا ويستفهم بها عن غير العاقل، نحو قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ البقرة-219-.

وذهب " ابن هشام " إلى أن "ماذا" في العربية، تأتي على ستة أوجه، نذكر منها ما يتعلّق بالاستفهام [1]:

-أن تكون "ما" استفهامية، و"ذا" إشارة. ومثاله: (ماذا التّواني).

-أن تكون "ما" استفهامية، و"ذا" موصولة. ومثاله: ألا تسألان المرء ماذا يحاول؟

-أن تكون "ما" استفهاما، و"ذا" زائدة. ومثاله: ماذا صنعت؟

-أن تكون "ماذا" كلّها استفهاما على التّركيب. ومثاله: لماذا أتيت؟

د- كم: « هي اسم مبهم يُستفهم بها عن العدد، وتقع على القليل منه والكثير ».[2]ويعلّل "المبرّد" ذلك في كتابه "المقتضب" بقوله: « وأنها تقع سؤالا عن واحد كما تقع سؤالا عن جمع. ولا تخُصّ عددًا دون عدد لإبهامها، لأنها لو خصّت لم تكن استفهاما لأنها كانت تكون معلومة عند السامع ».[3]

وقد قسّم النحاة "كم" إلى استفهامية، تحتاج إلى جواب، وخبريّة لا تحتاج إليه، بحيث تأتي الاستفهامية بمعنى (أي عدد)، وتكون الخبرية بمعنى (كثير)، وقالوا أن أصلها الاستفهام وخروجها إلى الخبر هو معنى مجازي.[4]

---

[1]- ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ج1، ص ص 300، 303.

[2]- علي الجارم ومصطفى أمين: النحو الواضح في قواعد اللغة العربية، ج1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1403هـ/ 1983م، ص414.

[3]- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: المقتضب، ج3، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث، القاهرة، مصر، ط2، 1386هـ/1965م، ص 66.

[4]- المبرد: المقتضب، ج3، ص 58.

هـ– كيف: وهي اسم يُستفهم بها عن حال الشيء وهيئته.[1] نحو: كيف أنت؟، وقيل لا يكون الاستفهام بـ "كيف"، إلا عن النكرة ومنه لا يكون الجواب إلا نكرة.[2] فيقال في جواب السؤال السابق كيف أنت؟ صحيحٌ، ولا يقال: الصحيح.

قال "سيبويه": « كيف : على أية حالة »[3]. والمقصود أنه يُستفهم بها عن جميع الأحوال الممكنة التي لا يمكن الإحاطة بها، من صحة ومرض وحزن وسرور...إلخ.

وقد ذكر "ابن فارس" أن الاستفهام بـ"كيف" قد يُراد به معنى النفي.[4] ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾. آل عمران –86–.

و–متى: وهي اسم من الأسماء الواقعة ظروفا دالة على الاستفهام.[5] ويُستفهم بها عن الزّمان، وهي من الظروف المبهمة، غير المتمكنة، كونها لا تُضاف ولا تُصرّف تصرُّف غيرها، وهي مبنية يُستفهم بها عن الزمان ماضيا كان أو مستقبلا.

وقال " الزجاجي" (340هـ) أن لها وجهين: [6] واحدٌ للاستفهام كقولنا: متى تخرج؟ وآخر للجزاء كقولنا: متى تزرني أُكرمك، وقد تزاد فيها ما في الجزاء، فتقول: متى ما تزرني أكرمك.

ز–أيَّان: وهي من جملة الأسماء التي تكون ظرفا دالّة على الاستفهام. ويُستفهم بها عن الزمان، كقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا**﴾. النازعات–42– أي: متى مُرساها؟ فهما تتشابهان في المعنى.

---

[1]–عبد الكريم محمد يوسف: أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، ص 11.

[2]– ينظر: قطبي الطاهر: الاستفهام النحوي، ص 20.

[3]– سيبويه: الكتاب، ج2، ص 128.

[4]– ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ص ص 130–131.

[5]– الزجاجي: حروف المعاني، ص59. والحسن بن قاسم المرادي: الجني الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ/ 1992م، ص 505.

[6]–الزجاجي، المرجع نفسه، ص ن.

وقد فرّق النحاة بين " أيّان " و"متى" فقالوا [1]:

أنّ "متى" أظهر في الزمان من "أيّان" لكثرة استعمالها، وأنّ "متى" تستعمل في كل زمان، وأمّا "أيّان" فإنها تُخصّص لما يُراد تفخيمه وتعظيمه كما في الآية في المثال السابق.

وأيضا تكون "متى" للشرط والاستفهام، و" أيّان " لم يُسمع استعمالها للشرط، ضف إلى ذلك اختصاصها في الاستفهام بالمستقبل، بخلاف "متى"، فإنه يُستفهم بها عن الماضي وعن المستقبل معا.

ح– أين: وهي اسم ظرفٍ يُستفهم بها عن المكان، وهي بمنزلة "متى" في الزمان. ولا تكون إلا للأماكن، فهي إذن من أسماء الأمكنة. و« لا يكون أين إلا للأماكن كما لا يكون متى إلا للأيام والليالي ».[2] فتقول مثلا: أين هند؟ وأين تدرس؟

وقال "الزجاجي" أنها قد تأتي بمنزلة "حيث".[3] وأنه يُجاب عنها بالمعرفة، فتجيب عن السائل: أين تبيت؟ بقولك: في الفندق، أو في فندقٍ كبير.

ط–أنَّى: ذكر النحاة أنها تكون في معنى كيف وأين، كقوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ آل عمران–37– أي: من أين لك هذا، وكقوله: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ البقرة–259– والمعنى: كيف؟ ونبّه بعضٌ منهم إلى أنها تكون بمعنى (مِن أين) وليس (أين)، فلا يكون معناها إلاّ مع حرف الجر "من" لأن فيها معنى يزيد على "أين" [4]. لذلك كان الجواب على السؤال: أنّى لكِ هذا؟ في الآية الكريمة: هو من عند الله، ولم يقل: هو عند الله.

ي–أيّ: يتفق النحاة على أنها تمثّل بعض ما تُضاف إليه [5]، أي أنه يُستفهم بها عمّا يميّز أحد المتشاركين في أمرٍ يعُمّ كلاهما. مثل سؤالك: أيّ القوم أخوك؟

---

[1]– قطبي الطاهر: الاستفهام النحوي، ص 25.

[2]– سيبويه: الكتاب، ج 1، ص ص 219– 220.

[3]–الزجاجي: حروف المعاني، ص 34.

[4]–ينظر: قيس إسماعيل الأوسي: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، ص 408.

[5]–ينظر: قيس إسماعيل الأوسي: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، ص 390.

وذكر "ابن فارس" أنها تكون للتّرجيح بين أمرين، فتقول: أيًّا ما فعلت فلي كذا، أي إن فعلت هذا وإن فعلت هذا.[1] وقال " الزجاجي" أن لها أربعة أوجه :[2] فتكون استفهاما، وجزاءً، وخبرا، ومدحا وتعجبا. وهي تصلح للعاقل مثل: أي صديق زارك؟ ولغير العاقل مثل: أيّ بحثٍ اخترت؟ وكذلك للزمان مثل: أي ساعة أتيت؟ وللمكان مثل: أي جهة جلست؟

وهي معربةٌ دون أخواتها بسبب استعمالها في الاستفهام مضافة[3] ،كما وتقع "أي" على المفرد والمثنى والجمع بلفظٍ واحد، ويكون السؤال بها عن النكرة و عن المعرفة معا.

ثَـالثاً: صدارة أدوات الاستفهام

يتفق النحاة دون خلاف على أنّ الاستفهام له الصّدارة في الكلام، «وللاستفهام صدر الكلام، لا يجوزُ تقدم شيء ممّا في حيّزه عليه، لا تقول: (ضربت أزيدا؟) وما أشبه ذلك ».[4]

ومعنى الصدارة عندهم هو اختصاص الكلمة بوقوعها في أول الحديث، وقولهم ممّا في حيّزه عليه، يعني أن لا يتقدم شيء ممّا في الجملة الاستفهامية أي في نطاقها على أداة الاستفهام، ومنه وجب لها الصدارة لأجل أن تفيد معنى الاستفهام، شأنها في ذلك شأن أدوات المعاني الأخرى، هذا لأنها إذا تقدّم عليها شيء من الجملة فقدت الدلالة على معناه، يقول"ابن يعيش" (643 هـ) :« إنّ الاستفهام له صدر الكلام من قبل أنه خلاف دخل على جملة تامة خبرية، فنقلها من الخبر إلى الاستخبار، فوجب أن يكون متقدّما عليها ليفيد ذلك المعنى فيها ».[5]

فما نفهمه هو أنّ كلّ ما يغيّر معنى الكلام ويؤثر في مضمونه وكان حرفا فمرتبته الصّدر، وذلك حتى يبني السامع ذلك الكلام على ما قصد المتكلم منذ أول الأمر.

---

[1]–ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ص 142.

[2]–الزجاجي: حروف المعاني، ص 62.

[3]–قطبي الطاهر: الاستفهام النحوي، ص 83.

[4]– الزمخشري: المفصل في علم العربية، ص 326.

[5]– ابن يعيش: شرح المفصل، ج8، ص 155.

رابعًا: أهمية أسلوب الاستفهام

ممّا لا يختلف فيه اثنان، أنّ للاستفهام أهمية كبيرة لما يؤدّيه من دور بالغ الأهمية في عملية التواصل بين المتخاطبين، وكثيرا ما يُقال أن عمليات التخاطب الإنسانية في معظمها عبارة عن تبادل الاستفهامات حُبًّا في المعرفة والاطّلاع والكشف عن الحقائق، ذلك أن للاستفهام وظيفة تبليغية، وإذا كان معلوما أن التواصل لا يتمّ إلا استنادا إلى تخاطبٍ، فإن الاستفهام بلا شك هو أبرز أدوات هذا التخاطب، لقدرته على إيصال المعاني والمقاصد للمخاطبين وإثارة التنبيه إلى الحقائق وإحداث الفهم فيها، كما أن الحياة اليومية للإنسان كثيرا ما تكون إجابة عن استفهامات شتّى مفادها: ماذا أفعل؟ وماذا علي أن أحقق من غايات؟ وكيف أحققها؟ ومتى؟ وأين؟ إضافة إلى ما يحمله هذا الأسلوب من دلالات مختلفة في التواصل اللغوي مع الآخرين، فيُستعمل في حالات الغضب والتوبيخ مثلا، فنوبّخ شخصا ما بالقول: لماذا فعلت هذا؟ أو كيف تجرأت على قول هذا؟ ونؤنّب آخر فنقول: ألم أقل لك؟ ألم أحذّرك؟.

وبقي أن نقول أن من أبرز فضائل الأسلوب الاستفهامي و مزاياه أنّه يعمل على إثارة العقل، ويدعوه إلى التأمل والتفكير، ويُفجّر لدى الإنسان طاقات البحث والتحليل، ومنه الوصول إلى الحقيقة، وإشباع فضوله في فهم كلّ ما يدور حوله.

الفصل الأول: الاستفهام في الدّرس البلاغي والبحث التداولي

توطئة:

لقد ارتبطت البلاغة العربية في نشأتها، بالنصّ القرآني الكريم، في محاولة للوقوف على أسرار نظمه، وأوجه إعجازه، وبالتالي فإنّ وصفها للظاهرة اللغوية، أو تحليلها للخطابات بأنواعها، لم يكن مجرّدًا من مقامات إنجازها، بل إنها تُعنى بالنّظر في عناصر النص، وكلّ ما يحيط به من ظروف خارجية، تساهم في تفجير الدلالات الكامنة وراء الملفوظات، فاهتمّت بالمتكلم ومقاصده، وأكّدت على ضرورة مراعاة حال السامع، ونوع العلاقة بين الفاعلين في الخطاب، وركّزت على الأبعاد الزمانية والمكانية والاجتماعية المؤطرة للعملية التواصلية، وكلّ هذه العناصر تُعدُّ من صميم البحث التداولي الحديث، فالتداولية تعتمد على اللغة كأداة للتواصل، وتهتمّ بدراسة المعنى اللغوي أثناء الاستعمال، وممارسة فعل التأثير على المتلقي، وكلّ ما من شأنه أن يزيد عملية الاتصال وضوحًا، فهي بخلاف الدرسات اللسانية التي ركزت في دراستها للغة على البنية الداخلية للنص، نراها قد تجاوزت النظر في المعنى الحرفي للملفوظ، إلى البحث في المعاني المضمرة للنص، وبهذا الطرح الذي تقدّمه الدراسة التداولية، عدّها الباحثون مدخلاً مناسبًا لدراسة التّراث البلاغي العربيّ، ومنظورًا جديدًا يؤسس لتحليل الظاهرة البلاغية وفق منظور تداولي، لما تتوفّر عليه من آليات، تساهم في الكشف عن المعنى ومكنوناته.

المبحث الأول: الاستفهام في الدرس البلاغي.

ممّا لاشكّ فيه أنَّ الدراسات اللغوية العربية كلّها، لم تبدأ منفصلة عن النحو، ومنها البلاغية؛ إذ أنّ البلاغيين كانوا نحاةً بالأصل، اشتغلوا على النحو قبل أن يخصّوا عنايتهم بالمسائل البلاغية، فكانت معرفتهم بالنحو وسيلة لاصطناع منحى بلاغي، أساسه النظر في جماليات الأسلوب، والوقوف على ما يتركه من أثرٍ في النفس.

والاستفهام الذي هو محور هذه الدراسة، يُعدُّ مبحثًا من مباحث علم المعاني؛ إذ يُشكِّل ظاهرةً لغوية شائعة في لغة القرآن الكريم، وفي لغة التخاطب اليومي، أولاهُ البلاغيّون اهتمامهم وعنايتهم، سنحاول في هذا المبحث أن نقف على أهم الجهود التي قاموا بها في إحاطتهم بهذا الأسلوب، انطلاقا ممّا أفرزته الدراسة النحوية لهم، كما ظهر لنا ذلك في المدخل، وقبل ذلك سنقوم أولاً بتعريف علم البلاغة، ومدى أهميته، وعلوّ مكانته بين علوم العربية، ثم نتبع كلّ ذلك بعرض المعاني والأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام، ونختم بذكر جمالياته.

المطلب الأول: تعريف علم البلاغة وأهميّته.

أوّلا: تعريف علم البلاغة.

قبل أن نقوم بتعريف هذا العلم، يجدُر بنا أن نعرّف البلاغة أوّلا في اللغة والاصطلاح:

أ–لغة:

حسب ما ورد في المعاجم اللغوية، فإن البلاغة في اللغة مصدرٌ مشتق من الجذر الثلاثي (بَلَغَ) بمعنى وصَلَ، يقول" ابن فارس" :« الباء واللام والغين أصلٌ واحد صحيح (...) تقول: بلغت المكان، إذا وصلت إليه (...) ومن هذا الباب قولهم: هو أحمق بلِغ، أي إنه مع حماقته يبلغ ما يريده (...) وكذلك البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان لأنه يبلغ بها ما يريده ».[1]

ووافقه "ابن منظور" (711هـ) حيث يقول:« بَلَغَ الشيئ يَبْلُغُ بُلُوغًا وبَلاغًا: وصل وانتهى(...) وتبلَّغ بالشيئ: وصل إلى مُراده، والبلاغُ: ما يُتبلّغ به ويُتوصّل إلى الشيئ المطلوب (...) والإبلاغ: الإيصال، وشيءٌ بالغ أي جيّدٌ،

[1]– ابن فارس: مقاييس اللغة: ج4، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 1400هـ/1979م، مادة "ب.ل.غ".

وقد بلغ في الجودة مبلغًا، والبلاغة: الفصاحة، ورجلٌ بليغ وبَلِغ: حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لِسانه كُنْهَ ما في قلبه، والجمعُ بُلغاء».[1]

نلاحظ أنّ هذه المعاجم اللغوية القديمة مُجمعة على أن معنى لفظ البلاغة في اللغة، هو الوصول والانتهاء وما يتّصل بمعانيها.

وليست القديمة وحدها من انفردت بهذا الرّأي، فإلى مثله ركن مجمعُ اللغة العربية في "المعجم الوسيط"، حيث جاء فيه: « بَلَغَ الشيء يبلُغُ بُلوغا–من باب قَعَدَ–وصل إليه، زمانًا كان هذا الشيء أو مكانًا أو غيرهما، حسّيا أو معنويًّا فهو بالِغٌ، وهي بالغةٌ، وهم بالِغون».[2]

وعليه، يُمكن أن نخلص إلى أن بلاغة الكلام تكمن في جودته وتميّزه، وبلاغة المتكلم قدرته على صنع الكلام المتميز عن غيره، فقُسّرت البلاغة بالحسن والفصاحة، والبليغُ بِحُسن الكلام وفصيحه الذي يوصل المعنى إلى قلب السامع.

ب– اصطلاحا:

لقد تعددت تعريفات البلاغيين العرب للبلاغة، حيث يرى "الرماني" (384هـ) صاحب كتاب "النّكت في إعجاز القرآن" أنّ البلاغة هي «إيصال المعنى إلى قلب السامع في أحسن صورة من اللفظ».[3]أي قدرة المتكلم على تمكين المعنى في قلب السامع، وذلك عن طريق إلباسه صورة جميلة من اللفظ.

وهذا ما ذهب إليه "أبو هلال العسكري" (395 هـ) حيث قال: « البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها(...)ومبلغ الشيئ منتهاه(...)فسُمّيت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ».[4]فما نفهمه أنه هذا الإيصال لا يقتصر فحسب على سمع السامع، وإنما تمكين ذاك المعنى في قلبه أي التأثير فيه.

---

(1)– ابن منظور: لسان العرب، مج8، مادة "ب.ل.غ".

(2)– مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 1425هـ/2004م، مادة "ب.ل.غ".

(3)–أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: النّكت في إعجاز القرآن، تح: محمد حلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1397هـ/1976م، ص 1.

(4)– أبو هلال العسكري: الصناعتين–الكتابة والشعر– تح: محمد البجاوي ومحمد ابراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 137هـ/1952م، ص 12.

وربّما كان تعريف "القزويني"(739هـ) للبلاغة في كتابه "الإيضاح" بأنّها «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته».[1]أكثر ضبطًا، ذلك أن المقام هو الذي يُحدّد لنا صورة القول الأنسب الذي يُحقق المراد لكل من المخاطِب والمخاطَب، لما يقتضيه ذلك من مراعاة لأحوال المتخاطبين.

ورغم أن مصطلح البلاغة كثيرا ما يرد إلى جانب مصطلح الفصاحة، إلا أنّه ثمّة فرق دقيق بينهما فالفصاحة أشمل منها لأنها تكون في الكلمة والكلام والمتكلم، بينما لا تكون البلاغة إلا صفة للكلام لا من صفة المتكلم في الأصل، ولكن لكثرة الاستعمال جُعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة وعليه فإن تسميتنا له بذلك هو بداعي التوسع، والبلاغة أخصُّ من الفصاحة لأن كلّ بليغ وجبَ أن يكون فصيحًا، ولا يكون كلّ فصيح بليغ بالضرورة.[2]

ولم يخرج المحدثون عن هذه الآراء في شيء، فقد وردت البلاغة عندهم على أنها «تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها في النّفس أثرٌ خلّاب، مع ملائمة كلّ كلام للموطن الذي يُقال فيه، والأشخاص الذين يُخاطبون». [3]

وذكر "عبد الرحمن الميداني" في كتابه " البلاغة العربية" أن البلاغة تتمثل في « مجموعة من العناصر هي الحرص على الإتيان بالقواعد النحوية والصرفية على أكمل وجهٍ، مع حُسن اختيار المفردات الفصيحة لها والابتعاد عن الخطأ في إيراد المعنى، والابتعاد عن أي تعقيدٍ لفظيّ أو معنوي لا يُوصل إلى المعنى المقصود ».[4]

كانت هذه طائفة من أقوال البلغاء في تحديد مفهوم البلاغة كما تصوّرها كل واحدٍ منهم، ومنها يُمكن القول بأنها: وضع الكلام في موضعه من طولٍ وإيجاز، وتأدية المعنى أداءً واضحًا، بعبارة صحيحة فصيحة لها في النّفس أثر خلّابٌ، مع ملائمة كلّ كلام للمقام الذي يُقال فيه، وللمخاطَبين به.

وعليه، نستخلصُ من مجموع هذه التعريفات أن علم البلاغة العربيّ، علمٌ جماليٌّ يُعنى بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهو فنٌّ قوليٌّ يعتمد على الموهبة والبديهة، واستشعار الجمال، وتبيُّن الفروق الخفية بين شتّى الأساليب،

---

(1)– القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث،القاهرة،مصر،ط3، 1413هـ/1993م،ص41.

(2)– ينظر: محمد جابر فياض: البلاغة والفصاحة لغة واصطلاحا، دار المنارة، جدة، السعودية، ط1، 1409هـ/1989م، ص 39.

(3)– علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة–البيان. المعاني. البديع–، دار المعارف، القاهرة، مصر ، دط، دس، ص 8.

(4)– عبد الرحمن الميداني: البلاغة العربية،أسسها وعلومها وفنونها،ج1،دار القلم،دمشق،سوريا،ط1، 1416هـ/1996م،ص 131.

وحسن التنسيق بين الألفاظ الذي يمنحُ الجمل قوّة وتأثيرًا، إلى جانب انتقاء الكلمات المناسبة لظروف المتلقين، ذلك أنه يُستحسن استخدام كلمة في مقامٍ ما، وقد يُستقبح ذلك في مقامٍ آخر.

فهو لا يُعنى فقط بإيصال الغرض المراد إبلاغه إلى المتلقي، بأي طريقة كانت، وإنّما يهتمُّ بغرض المتعة النّاجمة عن تأدية الكلام بأسلوب رائق، يبعث الراحة في النّفس، فضلاً عن فهم المقصود.

وفي العربية، يُقسّم علم البلاغة إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي: علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع. وكلّ علم من هذه العلوم يُقسَّم إلى فروع تشترك جميعها في وظيفة واحدة، وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتجميل الألفاظ مع إحداث الأثر كما ذُكِر في تعريف هذا العلم.

وفيما يأتي بيان هذه الفروع على نحوٍ موجز:

أ – علم المعاني: يُعرّفه "أحمد مصطفى المراغي" بأنه « قواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام مقتضى الحال، حتى يكون وفق الغرض الذي سُيّق له». [1]فبه نحترز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، فنعرف السبب الذي يدعونا إلى التقديم والتأخير، والحذف والذّكر، والإيجاز حينًا والإطناب حينًا آخر، إلى غير ذلك.

ومن بين أهمّ الأبواب التي يختصُّ بها علم المعاني:[2]

- ✓ باب الخبر والإنشاء.
- ✓ باب الذّكر وباب الحذف.
- ✓ باب التّقديم وباب التّأخير.
- ✓ باب التعريف وباب التّنكير.
- ✓ باب التقييد وباب الخروج عن مقتضى الظاهر.
- ✓ باب القِصر وباب الفصل والوصل.
- ✓ باب الإيجاز والإطناب والمساواة.

[1]– أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة–البيان والمعاني والبديع–،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط3، 1414هـ/1993م،ص 41.

[2]–ينظر: المرجع نفسه، ص 43 وما يليها.

وفيها كلام كثير لا يسعنا المقام لذكره، ولكنّا سنخُصُّ بالحديث باب الإنشاء، بما يرتبط بمبحث الاستفهام في المطلب الذي يلي هذا.

ب– علم البيان: هو علمٌ يُعرف به كيفية إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.[1] فهو إذن العلم الذي يهتم بالطرق التي يتمكن بها الإنسان من التعبير عن المعنى الواحد بطرق غير متشابهة. وأمّا أركانه فأربعة، وهي:

- ✓ التشبيه.
- ✓ المجاز.
- ✓ الكناية.
- ✓ الاستعارة.

ج– علم البديع: وهو العلم الذي يهتمُّ بالجانب الجماليّ للكلام، ويُعرّف على أنه « علمٌ تُعرف به الوجوه والمزايا التي تكسب الكلام حسنا وقبولا، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال التي يورد فيها ووضوح الدلالة».[2] ويُقسّم إلى قسمين[3]، واحدٌ يُعنى بالجانب المعنويّ وآخر بالجانب اللفظي للكلمة، والأوّل هو ما تُعرف به وجوه تحسين المعنى، وأمّا الثاني فهو ما تُعرف به وجوه تحسين اللّفظ.

فأمّا البديع المعنوي فينقسم إلى أنواع عدّة منها:[4] التورية، الاستطراد، الطباق، المقابلة، مراعاة النظير، حسن التعليل، المبالغة، المغايرة، حسن التقسيم، التوجيه(...)إلخ.

وأما البديع اللّفظي أو المحسنات اللّفظية فأشهرها:[5] الجناس، السجع، الموازنة، الازدواج، ردّ الأعجاز على الصّدر، الاعتراض، ائتلاف اللفظ مع اللفظ(...)إلخ.

---

(1)– أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، ص 216.

(2)– أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، ص 298.

(3)– ينظر: القادر حسين: فن البديع، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ/1983م، ص 33.

(4)– ينظر: المرجع نفسه، ص ص 45، 108.

(5)– ينظر: المرجع ن، ص ص 109، 149.

بعد أن وقفنا على تعريف علم البلاغة وذكر أقسامه، وما تختصُّ به، بقي لنا أن نبيّن مدى أهمية هذا العلم وفائدته.

ثانيا: أهميّته.

لعلّنا نستطيع أن نستشفَّ أهمية علم البلاغة من لفظ البلاغة نفسه، فقد سُمّي بذلك لأنّ المتكلم بمعرفته يبلغُ غايته، وهي الإفصاح عن مراده وإيصاله إلى قلب السامع، وإحداث الأثر فيه، والأهم من ذلك أننا به نعرف وجه إعجاز القرآن الكريم، وندرك ما فيه من خصائص البيان، ونفهم براعة أسلوبه، وانسجام تأليفه وسلاسة نظمه فعلم البلاغة وسيلة للوصول إلى معرفة إعجاز القرآن، وفي ذلك يقول"أبو هلال العسكري":«إنّ أحقّ العلوم بالتّعلُّم، وأولاها بالتّحفّظ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى».[1] وكذلك قوله مؤكّدًا على أهميته ومنزلته :« وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّهُ الله به من حسن التأليف وبراعة التّركيب».[2]

وعلى هذا الأساس، يتبيّنُ لنا مكانة علم البلاغة من علوم العربية، إذ لا فضيلة لكلامٍ على آخر إلّا بما يحويه من لطائفها، ويُودع فيه من مزاياها و خصائصها، ولا تفوّق لمتكلم على آخر، إلّا بما يلفظه من درّها وينفثه من سحرها.[3]

والجاهل بأسرار هذا العلم لا يعرف وجه الإعجاز إلّا بالتقليد، ولا يُعلمُ ذلك إلّا بالسماع، كما لا يجد إلى الوقوف على الجمال في منثور الكلام، ومنظومه سبيلاً، لذلك كان علم البلاغة السبيل إلى إدراك ما في الأدب من صورٍ و معانٍ وأخيلة، والتّمتع بما فيه من جمال الفكرة، وجمال العرض والأسلوب، وموسيقى اللّغة وسجعها فالبلاغة تبيّن نواحي الجمال الفنّي في الأدب، وتكشف أسراره ومصدر تأثيره في النّفس.[4]

---

[1]- أبو هلال العسكري: الصناعتين-الكتابة والشعر-، ص 7.

[2]-المرجع نفسه، ص 7.

[3]- ينظر: أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، ص 3.

[4]- ينظر: المرجع نفسه،ص 4. وأحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، ص 217. وصديقي أمال: تعليمية البلاغة العربية وطرائق تدريسها، مجلة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية، مجلة نصف سنوية، جامعة الزيان عاشور، الجلفة، الجزائر، ع4، (2017/12/1)، ص 57.

المطلب الثاني: جهود البلاغيين في دراسة أسلوب الاستفهام

سبق وقلنا أن الكلام في العربية ينقسم إلى خبرٍ وإنشاء، وللتفريق بينهما عَمَدَ البلاغيون إلى وضع قانون عامٍ يتمثّل في معيار الصدق والكذب، فالكلام الذي يحتمل مضمونه الصّدق أو الكذب هو الخبر، والكلام الذي لا يحتملهما ولا يُحسن أن يُقال عنه كذلك، هو الإنشاء أو الطلب. وإليه ينتمي إليه أسلوب الاستفهام، فهو ضربٌ من أضرب الطّلب أصلهُ أن يكون معدومًا في حالِ طلبه، وله معانٍ بلاغية شتّى يخرُجُ إليها.

ويُعدُّ " عبد القاهر الجرجاني"(ت471هـ) في طليعة من اهتموا بهذا الأسلوب، واعتنوا به أيّما عناية، فهو المؤسس الفعلي لنظرية علم المعاني، وقد كان للاستفهام حضور كبير عنده في كتابيه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة"، وذلك في حديثه عنه في باب التقديم والتأخير.

وقدّم "الجرجاني" تمهيدا لدلالة الهمزة في الاستفهام الحقيقي، وقرّر أنّ المستفهم عنه وجَبَ أن يليها سواء كان فعلا أو اسما. ثم بيّن الفروق الدلالية بين الجمل الاستفهامية بالهمزة، فإن وليَ الهمزة فعلٌ، كان الشكّ في الفعل نفسه، والاستفهام يكون عنه نحو: أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ وأما إذا ولِيَ الهمزة اسمٌ، كان الشكّ والتردد فيه، نحو: أ أنت كتبت هذا الكتاب؟ فالسؤال هنا عن الفاعل. وأما قولك: أأنت فرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ فلا يصحّ وذلك «لفساد أن تقول في الشيء المشَاهد الذي هو نصب عينيك أموجودٌ أم لا».[1]

كما تكلّم عن خروج الهمزة عن دلالة الوضع، فيقول: « واعلم أنّ هذا الذي ذكرت لك في همزة الاستفهام فهي للاستفهام المحض، قائم فيها إذا هي كانت للتقرير. فإن قلت: أأنت فعلت ذاك، كان غرضك أن تقرّه بأنه الفاعل ».[2] فالذي ذكره عن همزة الاستفهام في المثال خارج عن دلالته، على أن الاستفهام المحض مطلوبٌ به تحصيل ما ليس معلومًا عند المستفهم حال الاستفهام، والمدار في ذلك كلّه على القرائن و الأحوال، فإذا كنّا نعلم أن المستفهم يجهل الفاعل، كان الكلام استفهاما محضًا، وإذا كنّا نعلم أنه لا يجهل، فهذه قرينة دالّة على أنه لم يرد أن يعلم هوية الفاعل، وإنّما أراد معنى آخر.

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ج1، تح : محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، دط، 1424هـ/ 2004م، ص 113.

[2]- المرجع نفسه، ص نفسها.

وذهب إلى أنّ التقرير والإنكار والتوبيخ، من أظهر المعاني المجازية التي تُستفاد من الاستفهام غير الحقيقي، وقد اجتمعت ثلاثتها في قوله تعالى : ﴿**قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾الأنبياء 62، ومن ثمّ أشار إلى حقيقة أن التقرير إثبات، والإنكار نفي، وحرّيٌّ بهما أن ينفصلا، فبيّن أنّ هذا التناقض يزول إذا أدركنا أن الإنكار هنا، ليس معناه إنكار الفعل المقرّ به وهو موجود وواقع لا محالة، وإنّما المراد إنكار أن يجرأ الفاعل على مثله، وهذا هو المراد من الجمع بين هذين المعنيين عند"الجرجاني"، وهو من طرق الاستفهام بالهمزة.[1]

وأمّا "السكاكي"(ت626هـ) في كتابه "مفتاح العلوم"، ففي تقسيمه للأساليب الإنشائية الطلبية، جعل القسم الذي يكون لطلب حصول في الذّهن ممثلاً في الاستفهام، فيما شمل القسم الذي يكون لطلب حصول في الخارج، كلّ من الأمر والنهي والنداء، ووضّح الفرق بين القسمين بقوله: « في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل في ذهنك نقشٌ له مطابق، وفيما سواه تنقش في ذهنك، ثم تطلب أن يحصل له في الخارج مطابق. فنقش الذّهن في الأول تابع وفي الثاني متبوع ».[2]ومعنى هذا الكلام أن في الاستفهام يُطلب أن يحصل ما في الخارج في الذّهن، وعكس ذلك في الأمر والنهي والنّداء والتمنّي.

وفي تقسيمه للاستفهام، اعتمد "السكاكي" على دلالة التصوّر ودلالة التصديق، حيث نصَّ على أدواته وجعلها ثلاثة أنواع: ما يختصُّ بطلب حصول التصوّر، وما يختصُّ بطلب حصول التصديق، وما لا يختصُّ بواحدٍ منهما.[3]

كما أشار إلى الخصائص التي تنفردُ بها أداةٌ عن أخرى ، وعمد إلى بيان المعاني المقامية التي تخرج إليها بمعونة القرائن والأحوال، وفي ذلك يقول:« واعلم أن هذه الكلمات كثيرا ما يتولّد منها أمثال ما سبق من المعاني بمعونة قرائن الأحوال ».[4] وهذا قولٌ صريح، يثبت من خلاله أن أدوات الاستفهام كلّها قابلةٌ للخروج عن دلالتها الأصلية فيُستفاد منها معانٍ ثانية، والتي تُفهم بالقرائن المصاحبة للكلام. وشرع في ذكر أمثلة عن هذه المعاني، فكان ممّا ذكر:«ما هذا؟، ومن هذا؟، لمجرّد الاستخفاف و التحقير وما لي؟ للتعجب، قال تعالى حكاية عن

---

(1)- ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص ص 114-115.

(2)- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ/ 1987م، ص304.

(3)- ينظر: المرجع نفسه،ص 308.

(4)- المرجع ن،ص ص 313-314.

سليمان: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ﴾ النمل -20- (...) وأيّما رجل؟ وكم دعوتك؟ للاستبطاء، وكم تدعوني؟ للإنكار. وكيف تؤذي أباك؟ للإنكار والتعجب والتوبيخ ».[1]

ومن أبرز البلاغيين الذين أتوا بعد "الجرجاني" و"السكاكي"، وخصُّوا هذا الأسلوب بالعناية نجدُ الخطيب "القزويني" في كتابه "الإيضاح"؛حيث أفاد من آراءهما ككلّ عالمٍ في البلاغة، واستثمر ما جاءا به في هذا الباب فحصر أدوات الاستفهام ومعانيها الأصلية التي ترد فيها، وقسّمها إلى أنواعها الثلاثة كما فعل "السكاكي" قبل أن يشرع في بيان المعاني التي تُستفاد منها حال خروجها عن الاستفهام الحقيقي، وقد مهّد لذلك بالقول:«(...)ثم إنّ هذه الألفاظ كثيرا ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب المقام».[2]

ومن بين هذه المعاني التي ذكرها: الاستبطاء والتعجب والوعيد والأمر والتّهكم والتّهويل.[3]

ونجد أيضا من بين البلاغيين الذين أولوا اهتمامهم بهذا الأسلوب، العلاّمة " سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانيّ" (ت792هـ) في كتابه "المطوّل" وهو شرحٌ لكتاب " مفتاح العلوم " " للسكاكي"، حيث نبّهَ إلى مسألة خروج الاستفهام عن معانيه الأصلية، فيقول: « (...)إن هذه الكلمات الاستفهامية كثيرا ما تستعمل في غير الاستفهام، مما يناسب المقام بمعونة القرائن وتحقيق كيفية هذا المجاز، وبيان أنه من أيّ نوع من أنواعه ممّا لم يحُم أحدٌ حوله».[4]ومن بين الأمثلة التي ساقها في هذا الشأن، قولك مثلاً لمن يسيء الأدب: ألم أؤدّب فلانًا؟ (وهو عالم بذلك)، فهنا قد أفاد الاستفهام معنى الوعيد، فأنت تتوعّد هذا الشخص ولا تسأله.

وجاء بعده "الشريف الجرجاني"(ت816هـ) في كتابه " الحاشية على المطول"، حيث حاول توضيح بعض أنواع المجاز في الاستفهام الخارج عن الدلالة الأصلية، وذلك من خلال قوله:« المجاز في الاستفهام، لم يحم أحد حوله، وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز، وكيفية المناسبة المجوزة له، ونحن نذكر في هذه المواضع ما يتّضح به وجه المجاز فيها، وتستعين به فيما عداها(...)».[5] ومن بين هذه المواضع التي حاول فيها توضيح ذلك، قوله مثلا أنه

---

[1]- السكاكي: مفتاح العلوم ،ص 314.

[2]- القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، ص 112.

[3]- ينظر: القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، ص ص112، 115.

[4]- سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: المطوّل-شرح تلخيص مفتاح العلوم-تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1434هـ/2013م، ص 419.

[5]- الشريف الجرجاني: حاشية السيد على المطول، تح: رشيد أعرضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م، ص 262.

من مجازات الاستفهام: الاستبطاء، نحو قوله تعالى: ﴿**مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ البقرة- 214- فالاستفهام عن زمان النصر، يستلزم الجهل بوقت حصوله، والجهل به يستلزم استبعاده عادة، لأنّ الأنسب بما هو قريبٌ أن يكون معلومًا، والأنسب بما هو بعيد أن يكون مجهولا، وهكذا فإنّ استبعاده يستلزم استبطاءه (...)[1].

وأمّا جهود البلاغيين المحدثين التي بذلوها في عنايتهم بالاستفهام، فنجدها على نوعين، جهودٌ جمعت بين الدراسة النحوية والبلاغية، وأخرى اختصت بالدراسة البلاغية إن صحّ القول.

فمن النوع الأول نجدُ البحث الذي أعدّه"الطاهر قطبي"بعنوان "الاستفهام النحوي والبلاغي". والذي يؤكد فيه أنّ كل من الاستفهام الحقيقي والبلاغي يكمّلان بعضهما، وفيه أحاط بخصائص كل أداة على حدة، وبيّن الفروق بينها وضرب عدّة أمثلة وشواهد عن استعمالاتها سواء في القرآن الكريم، أو في الحوارات اليومية للناس، ثم عرج إلى الحديث عن الظواهر التي يُبنى عليها نظام الجملة الاستفهامية نحو: التعليق والمطابقة وغيرهما ومن ثم أخد يُفصّل في الأغراض البلاغية التي يؤدّيها حال خروجه عن دلالة وضعه، وذكر منها الإنكار والتقرير والأمر والاختبار والتشويق والتعظيم وغيرها، كما عدّهُ أسلوبا تجتمع فيه الدّلالات النفسية والاجتماعية، و أخد يُعدّد فضائله ويصف جمالياته.[2]

إضافة إليه، نجد أيضا دراسة "يوسف أبو العدوس" بعنوان "همزة الاستفهام بين المفهومين النحوي والبلاغي".[3] عالج فيه طبيعة الهمزة الاستفهامية، والفرق بينها وبين باقي الأدوات، ومن ثمّ بيّن دورها في الكلام وأحكامها، كونها أصل هذا الباب، وأكثر أدوات الاستفهام ورودًا في القرآن الكريم، وعرض الأساليب التي تأتي عليها من خلال الإيجاب والنفي، وقدّم أمثلة عنها وجعل يقارن بينها و بين عبارات استفهامية أخرى في اللغة الفرنسية و الإنجليزية، من حيث وقوع الاسم والفعل بعد الهمزة، وكيفية الإجابة في كلٍّ من النفي أو الإثبات، حيث يقول: «إذاُ وجّه إليك سؤال مبدوء بهمزة التصديق، فانظر إلى صيغة السؤال، هل هو إيجابي أو سلبي ثم

---

[1]- ينظر: الشريف الجرجاني: حاشية السيد على المطول ، ص 262ا.

[2]-ينظر: قطبي الطاهر: الاستفهام النحوي، ص 6 وما تلاها. وقطبي الطاهر: الاستفهام البلاغي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1415هـ/1994م، ص 3 و ما تلاها.

[3]- ينظر: يوسف أبو العدوس: همزة الاستفهام بين المفهوم النحوي والبلاغي، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مجلة دورية، جامعة مؤتة، مؤتة، الأردن، مج2، ع2، 31/ ديسمبر 1987، ص 143 و ما تلاها.

أجب حسب ما ترى».[1]ثم يفصّل في ذلك قائلًا:« إن كانت الهمزة سابقة لفعل موجب أي غير منفي، فالجواب بنعم للإيجاب وبلا للنفي (...) وإن كانت الهمزة سابقة لفعل منفي فالجواب يكون بلى إذا أردت الإيجاب ونعم إذا أردت السّلب أو النفي ».[2]

كما وبيّن أن الهمزة أوفر أدوات الاستفهام دلالة على المعاني البلاغية، فجاءت للإنكار بكلّ أنواعه، وكثرة دلالتها عليه، وكذلك للتشويق و الأمر والتقرير والتعجب.[3]

وأمّا الجهود البلاغية المتخصّصة، فثمّة كثير من الدراسات، نذكر منها ما قام به "فضل حسن عباس" في مؤلَّفه"البلاغة العربية فنونها وأفنانها"، حيث خصّص مبحثًا طويلًا للاستفهام فسار على نهج القدماء في تعريفهم له، ثم تحدّث عن أدواته والفرق بينها وما يُستفهم عنه بكلّ أداة، وبعدها بسط الحديث عن الأغراض التي تخرج إليها.[4]

وكذلك فعل "أحمد الهاشمي" في "جواهر البلاغة" حيث بيّن مفهوم الاستفهام و أدواته و ما تختص به، وذكر معانيها الحقيقية ثم المجازية، التي قال عنها أنها تُفهم من سياق الكلام ودلالته.[5]

المطلب الثالث: الاستفهام البلاغيّ وأغراضه.

سبق وعرفنا أنَّ الاستفهام في الأصل يقعُ من السّائل طلبًا للفهم، فحقيقته طلب العلم بشيئ لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصّة، هذا إن كان السائل جاهلًا لما يسأل عنه، وأمّا إذا كان عالمِا به، فإن السؤال يكون من قبيل المجاز كونه لا ينتظر إجابة وإنما له مقاصد أخرى، فهنا يكون الاستفهام قد خرج عن حقيقته بأن يقع ممّن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام ويُسمّى استفهاما بلاغيا، ويُطلق البلاغيون عليه تسمية "تجاهل العارف"، ويعرّفونه

---

[1]- يوسف أبو العدوس: همزة الاستفهام بين المفهوم النحوي والبلاغي ، ص 146.

[2]- المرجع نفسه ، ص 147.

[3]- المرجع ن، ص 146.

[4]- ينظر: فضل حسن عباس: البلاغة العربية فنونها وأفنانها، دار الفرقان، إربد، الأردن، ط4، 1417هـ/1997م، ص ص 168، 190.

[5]- ينظر: أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، ص ص 85، 99.

بقولهم:« تجاهل العارف وهو سؤال المتكلم عمّا يعلمه حقيقةً تجاهلاً منه، ليخرج كلامه مخرج المدح، أوالذم، أو ليدلّ على شدة التدلّه في الحب، أو لقصد التّعجب، أو التوبيخ، أو التقرير».[1]

وسمّاه " بهاء الدين السبكي" (773هـ) "إعناتا" حيث يقول: « هذا النوع من خروج الاستفهام عن حقيقته يسمى الإعنات».[2]

فالاستفهام البلاغي إذن ينتج عن استعمال الاستفهام المحض في غير معناه، ويُستفاد منه عدّة معانٍ أخرى تُفهم من سياق الكلام.

وفيما يلي بيان أهمّ هذه المعاني البلاغية المشتركة التي أوردها العلماء في كتبهم، وأكثرها تأديةً، وأبرزها ظهورًا :

–التقرير: هو حملُ المخاطَب على الإقرار بأمرٍ يعرفه، فيُخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام « لأنّه أوقع في النفس وأدلُّ على الإلزام ».[3] وله معنيان :

- حمل المخاطب على الإعتراف : نحو قولك : ألستُ أستاذك ؟ فالمقصود بها حمل تلميذك على أن يقرّ بذلك.

- التحقيق والتّثبيت : نحو قولك : ألم أفتح لك كثيرًا من أبواب الخير؟ أي : قد فعلت ذلك.

وقد يجتمع مع التقرير معانٍ أخرى لها به صلةٌ، مثل التوبيخ والتعجّب والتّعظيم، وأمّا الغرض البياني منه، فقيل إلزام المخاطَب بالحجّة، وانتزاع الاعتراف منه بما يريده المتكلم وحملهُ على الإقرار بالحقيقة [4].

– الإنكار: هو الاستفهام عمّا يُستنكر أو يُستهجن، فإذا قال المعلم للتلميذ : أتهمل الواجب؟ كان غرضه إنكار الإهمال عليه وتنبيهه. وهو على ضربين: [5]

---

[1]– قيس إسماعيل الأوسي: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، ص 413.

[2]–بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج1، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ/2003م، ص458.

[3]– فضل حسن عباس : البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني – ص 190.

[4]– ينظر: المرجع نفسه، ص 193.

[5]– ينظر : قطبي الطاهر : الاستفهام البلاغي، ص 33. وبسيوني عبد الفتاح : علم المعاني – دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني –مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط4، 1436هـ/ 2015م، ص 402.

– الإنكار التوبيخي: نحو قولك : أعصيت والدك؟ بمعنى ما كان ينبغي أن يحدث، أو على أمرٍ في المستقبل مثل: أتترك دراستك؟ بمعنى لا يصحّ أن يحصل ذلك.

– الإنكار التكذيبي: يأتي بمعنى (لم يكن)، وذلك لأمرٍ اعتقده المخاطَب ويزعم أنه قد وقع، ومثاله أن يدّعي أحدٌ غيابك عن العمل، فتقول له: أتدّعي أنني غبت؟ فأنت تنكر على صاحبك وتكذّبه فيما صدر منه في الماضي، ويأتي بمعنى (لن يكون) في المستقبل، أي لأمرٍ لم يقع، والمخاطَب يعتقد أنه سيقع، مثل قوله تعالى : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** ﴾هود –28–. والمعنى: أنجبركم على الاهتداء بها؟ والمقصود: لن يكون هذا الإجبار ولن يحدث ذلك الإكراه في الدين.

وتجتمع معه معانٍ بلاغية أخرى كالتوبيخ والتعجب والاستبعاد، ومن فائدته إحراج المخاطَب الذي لا يجد لاستفهامك جوابًا.

– الأمر: يُراد به «إغراء المخاطَب وحثُّه على الاستجابة وقبول الأمر ».[1] كقوله تعالى :﴿**يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ**﴾ –المائدة 91– وتأويله: انتهوا، ويقول الرجل لصاحبه: هل أنت ساكت؟ أي: أسكت.

وثمّة أسلوبٌ في القرآن الكريم، يدخل ضمن الاستفهام الذي يُراد به الأمر وهو أسلوب (أرأيت) واتُّفق على أنّ معناه: (أخبرني)، نحو قوله عزّ وجل: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**﴾النجم 19–20. ومعناه أخبروني عن هذه الأصنام الثلاثة التي زعمتم أنّها تمثّل بعض الملائكة [2].

– النّهي: أي «طلبُ الكفّ عن العمل والتّوقف عن إتيانه ».[3] كقوله تعالى :﴿ **أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ التوبة – 13–. والمعنى: لا تخشوهم.

---

[1]– بسيوني عبد الفتاح : علم المعاني– دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني – ، ص 401.

[2]– ينظر: عبد العزيز عتيق : علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ/ 2009م. ص 107.

[3]– قطبي الطاهر: الاستفهام البلاغي، ص 48.

– **النّفي**: وذلك عندما تجيء لفظة الاستفهام بمعنى النفي لا لطلب العلم بشيء، نحو قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ** ﴾.الزمر –19–. أي: لا تنقده.

– **التمنّي**: وهو تشهّي حصول الأمر المرغوب فيه، ويحدث عندما تدخل أداة الاستفهام على الأمور البعيدة الحصول، كقول أهل النّار﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾الأعراف –53–. كأنّهم من فرط العذاب صاروا يسألون غير الممكن.

– **التّوبيخ**: ويقع في أمرٍ لم يكن ينبغي فعله، أو على ترك فعلٍ كان ينبغي أن يُفعل، مثل: ﴿ **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** ﴾.الصافات –95–. فهذا توبيخ على عبادة الأوثان وترك عبادة الله الواحد الأحد.[1]

– **التّعجّب**: يأتي الاستفهام بمعنى التعجب، وذلك في مقام يتعجب فيه القائل من مضمون الكلام، مثل تعجّب "سليمان" عليه السلام من غياب الهدهد: ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ** ﴾.النمل –20– ؛ إذ كان لا يغيب إلا بإذنه فلمّا لم يطلب الإذن استفهم "سليمان" متعجّبًا.

– **التّهكّم**: بمعنى السخرية والاستهزاء، كما فعل المشركون: ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾.هود –87–. فهم يستهزؤون به ويسخرون من صلاته، وعبّروا عن ذلك بالاستفهام ليدلّوا على ثباتهم وكفرهم.

– **التّعظيم**: معناه التّفخيم، وهو ضد التحقير[2]، فهو إظهار عظمة ورفعة الشيء أو الأمر الذي دخله الاستفهام، فرؤيتك شيئا عظيما تدفعك للتعبير عن فخامته مستفهما فتقول مثلاً: ما هذا القصر؟ ما هذا الشاعر؟ وأنت لا تريد إجابةً، وإنّما تبوح بعظمة ما رأيت أو سمعت.

– **التهديد والوعيد**: إذ يستعمل الاستفهام بمعنى الوعيد لتخويف المخاطَب على ما صدر منه، كأن يقول الأب لأحد أبنائه: هل رأيت ما صنعت بأخيك؟ والولد قد رأى تأديب الوالد لأخيه، فيكون الغرض هو الوعيد والتهديد.

---

[1]– السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، تح: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1469هـ/ 2008م، ص 576.

[2]– عبد الرحمن الميداني : البلاغة العربية، ج1، ص 283.

– **التهويل والتخويف:** ومعناه التّفزيع، فإذا كان المعظّم شيئا مخيفًا مهوّلاً، كان تعظيمه بالاستفهام فيه معنى التخويف، كقوله عزّ وجل: ﴿ **الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ** ﴾الحاقة 1-3. فالاستفهام هنا غرضه التهويل والتخويف[1].

– **الاستبعاد:** وهو عدُّ الشيء بعيدًا، نحو قوله تعالى على لسان الكفار:﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾.ق-3- ، فهم يستبعدون البعث وحصوله، « ولا ريب أنّه أبلغ وأجمل من أن يُعرض قول الكفّار في صورة خبرية ».[2] فقد زاد من تأكيد حصوله.

– **التّنبيه على الضّلال:** وفيه يكون الاستفهام بغرض تنبيه المخاطَب، كقوله تعالى:﴿ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ** ﴾. التكوير -26-، فليس القصد الاستخبار عن المكان، وإنّما تنبيههم على ضلالهم وأنه لا طريق لهم ينجون به [3].

– **التشويق:** وفيه يريد المستفهم « تشويق المخاطَب إلى أمر من الأمور ».[4] فتقول لصديقك: هل أبشّرك بما يفرح به قلبك؟ فالغرض من السؤال تشويقه إلى معرفة الخبر.

– **التسوية:** ويكون معنى التسوية بين الشيئين بما ذُكر فيه لفظ (سواء) أو ما قارب معناه ودلّ على التسوية [5] مثل قوله عزّ وجل: ﴿ **وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾.يس -10-. أي: استوى إنذارهم وعدمه.

---

[1]- عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية، ج1، ص 284.

[2]- يوسف أبو العدوس : همزة الاستفهام بين المفهومين النحوي والبلاغي، ص 190.

[3]- ينظر : عبد العزيز عتيق : علم المعاني، ص 106.

[4]- المرجع نفسه، ص نفسها.

[5]- قطبي الطاهر : الاستفهام البلاغي، ص 55.

المطلب الرابع: جمالياته.

لعل أهمّ ما يتعلق بالسمات الجمالية التي يضيفها الأسلوب الاستفهامي على الكلام، تكمن في غزارة الشحنات الانفعالية، والتلوين الصوتي الذي يحقّقه الاستفهام لما في تنغيمه من خصوصية[1]. وهي سمة تمتاز بها الأساليب الانشائية عموماً، لذلك كثيرا ما نجدها غالبة في اللّغة الأدبية، لما تثيره من انفعال وما تحركه في النفس.

والاستفهام من أكثر الأساليب الإنشائية استعمالا وأهمّية، لما فيه من قوة في الظهور وحسن الدّلالة، كما أنّه يمثّل قدرا لا بأس به من الاقتصاد اللّغوي[2]؛ إذ تكون الأداة مكثّفة للمعاني، مختصرة للألفاظ، وهذا ما تنبّه إليه "ابن جنيّ" فقال: « ألم تسمع إلى ما جاؤوا به من الأسماء المستفهم بها (...) كيف أغنى الحرف الواحد عن الكلام الكثير المتناهي في الأبعاد و الطّول ».[3] فاستعمال الأداة في الاستفهام على حدّ قوله يغني عن التطويل والتفصيل.

فلا غرابة أن نجده من أكثر أساليب الكلام في القرآن الكريم، وبه افتتحت بعض السور القرآنية فالاستهلال به راجع إلى المعاني البلاغية التي يخرج إليها، والتي تكون أبلغ من الإخبار المباشر، ويكون أدل على المعنى المقصود وأوكد له، وهو ما سمّاه البلاغيون « بحسن الاستهلال ذلك أنّ الخطاب والاستفهام يحتملان ما لا يحتمل غيرهما »[4] ؛ فهو أكثر الأساليب تأدية لمطالب السياق وتنوع المواقف.

وعلاوة على ذلك؛ فإنّ تلك المعاني البلاغية التي يخرج منها، تعدّ وحدها من أبرز جماليته، فقد رأينا كم من المعاني المختلفة التي تجتمع في الأداة الواحدة، تضاف إلى معنى الاستفهام الذي تدخل به إلى الجملة، وذلك ما أحدث تنويعا جميلا للدّلالات، فتجمع الأداة الواحدة معنى التعجب والتوبيخ والعتاب معا، وتضمّ أخرى معاني التّكذيب والاستعجال والاستهزاء، ممّا يعدّ اقتصادًا لغويا هامّاً في العربيّة.

---

[1]- ينظر: قطبي الطاهر، الاستفهام البلاغي، ص 64.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

[3]- ابن جني: الخصائص، ص 82.

[4]- قطبي الطاهر: المرجع السابق، ص 66.

وقد أشار البلاغيون والمفسرون إلى قدرة هذا الأسلوب على إيصال المعاني للمخاطبين وإثارة انتباههم، وتحريك ما في نفوسهم للنظر صوب الحقائق وإثارة الإفهام فيها، فله من الخصوصيات المرتبطة بقرائن المقام والمقال ما يجعله مفتاحا للكشف عن أسرار القرآن،ودقّة معانيه، وذلك مما يعدّ قيمة فنّية وجمالية يحظى ويتمتع بها.

المبحث الثاني: الاستفهام في البحث التداولي

تُعدُّ التداولية من أبرز البحوث اللغوية المعاصرة، التي اهتمّت بدراسة اللغة في الاستعمال، وذلك من خلال التركيز على عناصر الدائرة التخاطبية (المخاطِب، المخاطَب، الخطاب، السياق وظروفه)، بغية إنجاح العملية التواصلية، وفي هذا المبحث سنقوم بتعريف التداولية، وظروف نشأتها وتطورها، ثم نذكر أبرز مهامّها، والأهمية التي تحظى بها، وبعدها ننتقل للحديث عن أشهر نظرياتها، المتمثلة في نظرية الفعل الكلامي، والاستلزام الحواري، وأهم المفاهيم التي قامتا عليها.

المطلب الأول: تعريف التداولية.

أ–لغة:

يرجع مصطلح التداولية في أصله العربيّ إلى الجذر اللّغويّ(دَوَلَ)، ومع تعدّد معَانِيه واختلافِهَا فَإنَّا نجدها لا تخرُجُ عن معاني التّبَدُّل والتَّحول.

بدايةً، جعل"ابن فارس" مادّة(د.و.ل)على أصلين فيعرّفها بقوله: « دَوَلَ:الدَّال والواو واللّام أصلان أحدهما يدلُّ على تحوّل شيئ من مكان إلى مكان، والآخر يدلُّ على ضعفٍ واسترخاء.فأمّا الأول فقال أهل اللّغة:انْدَالَ القوم، إذا تحوّلوا من مكان إلى مكان(...)ويقال بل الدّولة في المال والدُّولة في الحرب (...) لأنّه أمرٌ يتداولونه(...)وأمّا الأصل الآخر فالدّويل من النّبْتِ:ما يَبِسَ لعامه، قال أبو زيد:دَالَ الثّوبُ يدُولُ، إذا بلِيَ(...) ومن هذا الباب اندالَ بطنُهُ، أي استرخى».[1]

وإلى مثل ذلك ذهب"ابن منظور"؛ إذ يقول: « (...) تداولنا الأمر أخدناه بالدّول، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر(...)ودالت الأيام أي دارت، والله يُداولها بين النّاس وتداولتهُ الأيدي أخدتهُ هذه مرّة وهذه مرّة(...)».[2] فمعنى أننا تداولنا الأمر أي أخدناهُ بالدّول مرّة ومرّة.

ونجد المعنى ذاته في المعاجم اللّغوية الحديثة، فقد وردَ في "المعجم الوسيط"، أنّ معنى دَالَ هو انتقل تقول: دالَ الدّهْرُ دوْلاً ودوْلةً انْتقَلَ من حالٍ إلى حالٍ، ودالَت الأيام بمعنى دارَت، ودالَ الثّوب: بَلِيَ، ودَاولَ الشيئ بينهم:

---

(1)– ابن فارس: مقاييس اللغة، ج1، تح: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1429هـ/2008م، مادة"دَ.وَ.لَ".

(2)– ابن منظور: لسان العرب، ج6، مادة"دَ.وَ.لَ".

جعلهُ متداولاً تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، وانْدالَ الناس: صاروا من مكان إلى آخر، وتداولت الأيدي الشيئ: أخذته فيما بينها مرّة بمرّة[1].

ومنه، فمدارُ اللفظ لغةً هو التّناقل والتّحول، بعد أن كان مستقرًّا في موضعٍ ما ومنسوبًا إليه.

ب–اصطلاحًا:

– عند الغرب:

لقد أشار كثيرٌ من الباحثين الغربيين إلى مفهوم التداولية، ويتّفق معظم علماء اللسانيات على أنّ أقدم تعريفٍ لها كان للفيلسوف الأمريكي"تشارلز موريس" (**Ch.Morris**) عام (1938م)؛ إذ عدّها جزءًا من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعمليها، وذلك لما أقرّ بأن السيميائيات فروع ثلاث هي:[2]

–التركيب: ويهتم بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات.

–علم الدلالة: ويهتم بدراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تُحيل إليها.

–التداولية:التي تتدخّل لدراسة علاقة العلامات بمستعمليها، وقد استقرّ لديه أنّها « تقتصر على دراسة ضمائر المتكلّم والخطاب وظرفي المكان والزمان(الآن، هنا)، والتعابير التي نستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيًا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل ».[3] فموريس يجعل التداولية قطبًا ثالثًا من السيميائيات، التي تختصّ بدراسة العلامات بعد قطبي التركيب والدلالة.

واقترح بعدها "رودولف كارناب(**R.Carnab**) تعريفًا آخر لها، فذهب إلى عدّها «حقل البحوث التي تأخذ في اعتبارها نشاط الإنسان الذي يتكلّم أو يسمع العلامة اللغوية وحالته ومحيطه ».[4] وفي ذلك إشارة واضحة إلى عنايتها باللغة أثناء الاستعمال في إطار علاقتها بالسّياق.

---

[1]– ينظر: مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط، مادة " د.ا.ل.".

[2]– ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 1423هـ/2002م، ص9.

[3]– آن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ص 29.

[4]– محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى–أنظمة الدلالة في العربية–، دار المدار الإسلامي، بنغازي، ليبيا، ط2، 1428هـ/2007م، ص 137.

– عند العرب:

لا تكاد تختلف أقول وتعريفات الباحثين العرب المعاصرين عن تعريفات علماء الغرب، من مثل ما ذكرناه، فنجد "صلاح فضل" يعرّف التداولية على أنّها « العلم الذي يُعنى بالعلاقة بين بنية النصّ وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظّم، ممّا يُطلق عليه سياق النص، ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية المساحة التي كان يُشار إليها في البلاغة القديمة بمقتضى الحال ».[1]

نفهم منه،أنّ التداولية اقترنت عنده أيضًا بالسياق؛ إذ نبّه إلى العلاقة بين مكونات التركيب وعناصر الدائرة التواصلية.

ومثله ذهب"طه عبد الرحمن" الذي يقول:«فالتّداول عندنا متى تعلّق بالممارسة التراثية، هو وصف لكل ما كان نطاقًا مكانيًا وزمانيًا لحصول التواصل والتفاعل».[2] أي أنها مقترنة بهما.

في حين يعرفها "مسعود صحراوي" على أنّها « إيجاد القوانين الكلّية للِاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية من ثمّ جديرة بأن تسمى علم الِاستعمال اللغوي ».[3]

فنجدهُ قد ربطها بالتواصل على نحوٍ يجعلهما شديدي التّرابط؛ أي عنايتهما بدراسة اللغة أثناء الاستعمال واهتمامها بكلّ ما يحيط الفعل التّخاطبي، من خلال ربط الملفوظات بالظّروف الخارجية.

إذن نستخلص من كلّ ما تقدّم، أنّ التداولية في أبسط تعريفاتها هي:

الدراسة التي تُعنى باللغة في الاستعمال، واستخدامها في سياقات مختلفة، تقوم على مراعاة كلّ ما يحيط بعملية التّخاطب من أحوال المتخاطبين والظّروف المكانية والزمانية والاجتماعية، بغية الوصول إلى المعنى المرغوب وإحداث الأثر المناسب على المتلقّي بحسب قصد صاحبه، لضمان نجاح العملية التواصلية.

---

[1]– صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الكويت، دط، 1413هـ/1992م، ص21.

[2]–طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التّراث، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، ط2، دس، ص 244.

[3]– مسعود صحراوي:التداولية عند العلماء العرب–دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان ط1، 1426هـ/2005م، ص ص 16– 17.

وتكون التداولية بذلك قد تخطّت في دراستها للّغة، الشّكل والصورة إلى العناية بالمعاني والمقاصد المتعلقة بالسّياق، ولهذا يمكننا القول، أنّ التداولية هي البحث عن المقاصد الخفيّة، بحيث أنّها تهتمّ بما يُقصد به أكثر من اهتمامها بما يُقال ويُتلفّظُ به.

المطلب الثاني: نشأتُها وتطوّرها

1-نشأتها:

إنّ الجذور الأولى للتّداولية يمكن أن نلمسها في الإتجاه المتمثّل في "الفلسفة التحليلية" التي نشأت مع فلاسفة المدرسة الإنجليزية الحديثة من مثل "براترندر راسل"(**B.Russell**) ، و"رودولف كارناب"، وغيرهم...،في العقد الثاني من القرن العشرين، وتمثّل اتجاهًا رئيسا في فلسفة اللّغة المعاصرة، حاول تغيير مهمة الفلسفة و موضوعها وممارستها.[1]

ويُجمل "مسعود صحراوي" مفهوم هذه الفلسفة في جملة من الاهتمامات تتلخّص فيما يلي:[2]

-الابتعاد عن أساليب البحث الفلسفية القديمة التي تُركّز على الجوانب الميثافيزيقية.

—تغيير مدار الإهتمام الفلسفي من موضوع (نظرية المعرفة) نحو موضوع (التحليل اللغوي).

—التجديد والدراسة المعمّقة لبعضِ المباحث اللّغوية، وخاصّة مبحث الدلالة وكلّ الظّواهر اللغوية المرتبطة به.

وعليه، فإنّه يظهر من سمات هذا الاتجاه، أنّ الفلسفة التحليلية تبحث في الإشكالات والموضوعات الفلسفية واللغوية، على أساسٍ علميّ، باتخاذها اللغة موضوعًا للدراسة بعدّها أولى الأولويات في أي مشروع فلسفي، وكذلك الخوض في مباحث لغوية شتّى بطرق جديدة، لاسيّما مبحث الدلالة والظواهر اللغوية المتفرّعة عنه.

هذا وقد انقسمت الفلسفة التحليلية إلى ثلاث فروع كبرى تتمثّل في: الوضعانية المنطقية، بزعامة "رودولف كارناب"، والظاهراتية اللغوية، بزعامة "إدموند هوسرل"(**E.Husserl**)، وفلسفة اللغة العادية، بزعامة "فيتغنشتاين"(**L.Wittgenstein**)[1].

---

[1]- ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 17. وحافظ إسماعيل علوي: التداوليات-علم استعمال اللغة- عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط2، 1435هـ/2014م، ص 17.

[2]-ينظر: مسعود صحراوي: المرجع نفسه، ص ص 21- 22.

إلاّ أنّ هذه الفروع ليست كلّها ذات منهج وظيفي تداولي في دراسة اللغة، فقد خرج الإتجاهان الأوّلان عن اهتمامات التداولية بسبب استبدال أوّلهما للغات الطبيعية بلغات أخرى مصطنعة، وهي بهذا الفعل أقصت القدرات التواصلية التي تمتلكها هذه الأخيرة، وأما ثانيهما فيؤخذ عليه، أنه كذلك ابتعد عن الاستعمال العادي للغات الطبيعية، فقد اهتمت الظاهراتية اللغوية بما يُعرف بـ"المرحلة السديمية"، وهي مرحلة ذهنية في غاية التجريد، ليس لها علاقة بالاستخدام اللّغوي، ولا بظروف التواصل ولا بمقاصد المتكلمين...، ومن ثمّ أُعتُبِر هذه الاتجاه غير تداولي، إلاّ أنّه أتى بمبدأ إجرائي يدخل ضمن نطاق التداولية وهو مبدأ (القصدية)، والذي أُستُثمر لاحقاً في دراسة مباحث مهمة في التداولية.[2]

نستخلص ممّا تقدّم، أنّه لم يبقَ ضمن الاهتمامات التداولية من بين تلك التيارات الثلاثة، سوى تيّارٌ واحدٌ والمتمثل في تيار فلسفة اللغة العادية، ذلك أنّه كان يعدُّ المادة الأوليّة والرّئيسة للفلسفة هي اللغة؛ إذ يرى أنّ كل مشكلاتها تُحلُّ بها، في حين خرجت كل من الوضعانية المنطقية، والظاهراتية اللغوية عن دائرة البحث التداولي، لمخالفتهما منطلقات وأُسس التداولية.

وعن بداياتها الفعلية، فقد كانت أثناء حديث "تشالرز موريس" عام (1938م) عن السيميائية في أبعادها الثلاثة، التركيبي والدلالي وأخيرًا البعد التداولي.[3] فقد نبّه إلى علاقة العلامة بمستعملها وطريقة توظيفها، وأثرها في المتلقّين، وأكّد على علاقة الرموز بمؤوليها، وأشار إلى أنّ التداولية تعتمد على علميّ التركيب والدلالة في محاولتها للكشف عن مقاصد المتكلم.[4]

لكنّ المرحلة الحاسمة في صياغة معالم التداولية، هي تلك التي ألقى فيها "جون أوستن"(**J.Austin**) سلسلة محاضرات بجامعة "هارفرد" سنة (1955م)، حول فلسفة "وليام جيمس"، وفيها أدخل مفهومًا سيُصبح فيما بعدُ

---

[1]- المرجع ن، ص 22.

[2]- ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 22.

[3]- ينظر: جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1437هـ/ 2016م، ص 20.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ص نفسها.

محوريًا في التداولية، وهو المفهوم الذي بات يُعرفُ بالفعل الكلاميّ، « مدافعًا بذلك عن الفكرة القائلة بأنّ اللّغة في التواصل ليس لها أساسًا وظيفة وصفية، بل لها وظيفة عملية ».[1]

ومنه فقد كان ظهور مفهوم الفعل اللغوي أحد لبنات البحث الأولى التي اعتمدها اللّسانيون لتأسيس التداولية.

وبعدها في عام (1967م)، أعاد "بول غرايس" (**P.Grice**)تلقين هذه المحاضرات، وبيَّن فيها أنّ اللغة الطبيعية لم تكن ناقصة كما كان يعتقد المناطقة والفلاسفة التحليليون آنذاك، وذهب إلى أنّ العلاقات المنطقية التي توظّفها الأقوال عند التواصل، خصوصًا منها علاقات الاستلزام والاستدلال، قائمة على مجموعة علاقات كلية وجزئية يتمّ استعمالها أثناء التواصل.[2] وبذلك فقد ساهم "غرايس" منذُ ذلك الحين في بيان وتفسير كيفية تبليغ المعاني أكثر ممّا ندلُّ عليه بالأقوال.

وقد أدّت أعمالهما، إضافة إلى إسهامات "جون سيرل" (**J.Searle**) الذي استفاد من جهود أستاذه " أوستن" في تطوير نظرية الأفعال اللغوية، إلى ظهور عدّة أعمال أخرى لا تقتصر فحسب على النطاق التداولي، وإنّما ذات توجّهات علميّة متعدّدة مثل: فلسفة اللغة، واللسانيات النفسية، واللسانيات الاجتماعية...،والتي كان لها انعكاسٌ كبير على مضمار اللسانيات، وساهمت بالخصوص في بيان الصّلات بين بنية اللّغة واستعمالها.[3]وفي هذا بيان صريح على نشأة التداولية في مناخ فكري علميّ متعدّد التّخصصات، واستفادتها من نتائج هذه الحقول المعرفية في تطوير مباحثها وتوسيع مجال اشتغالها.

2-تطوّرها:

نظرًا لأصولها المتينة ونشأتها في كنف عدّة توجّهات علميّة، استطاعت التداولية أن تطوّر من مباحثها ضمن مجموعة من المقاربات اللغوية من بينها تحليل الحوار، وتحليل النص، وتحليل الكلام/ الخطاب، بوصفها امتدادًا طبيعيا لأطروحات نظرية النحو الوظيفي، ومن بين هذه الأطروحات أو الأفكار، أن المعنى ليس ما تحتويه كتب

(1)- آن روبول، جاك موشلار: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، تح: خالد ميلاد، دار سيناترا، تونس، دط، 1471هـ/ 2010م، ص 22.

(2)- ينظر: آن روبول، جاك موشلار: القاموس الموسوعي للتداولية، ص 22.

(3)- ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

النحو ولا ما تقوله المعاجم–دون إنقاص ما لكليهما من أهميّة– ولا في العمليات اللغوية المجرّدة من سياقاتها، لكن المعنى فيما يقصدهُ المتكلم ويريده وفيما يُفهم من المتلقي، وفيما ينتجه السياق وظروفه من دلالات ومعانٍ خفيّة.[1]

هذا وقد أسهمت المدارس اللسانية من بنيوية وسيميائية وتوليدية تحويلية، في إثراء الدرس التداولي بمفاهيم متعددة كونها « تنطلق جميعا من الاهتمام بالتواصل والاستعمال الفعلي للغة، لأن ذلك ما يحدّد بنيتها التركيبية إضافة إلى أنّ المتكلّم يبني كلامه وفق ظروف التواصل، وطبيعة المتلقي، لا وفق مبادئ النظام، أو حتى ما يرتبط به هو، بعدّه منتج الكلام ».[2]

فالتداولية إذن، تتفق مع النظريات اللسانية في فكرة الاستعمال الفعلي للغة، واهتمامها بالتواصل الذي يقتضي التّوافق بين المتخاطبين أثناء العملية التواصلية.

ويتّفق الباحثون على أنَّ التداوليّة لم تصبح مجالاً يُعتدُّ به، ولم تحض بمكانة خاصّة في ساحة الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين، بعد أن قام كلّ من " أوستن" و"سيرل" و"غرايس" بتطويرها[3]، فقد كانوا مهتمين « بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مُرسل رسالة إلى مستقبِل يفسرها، وكان هذا من صميم عملهم، وهو من صميم التداولية أيضًا ».[4]

وقد كانت بداية تطور اللسانيات التداولية بنظرية أفعال الكلام التي ظهرت مع "أوستن"، حيث كانت الفكرة التي اكتشفها أنّ كثيرا ممّا نستعمله من الجمل ليست استفهامية أو تعجبية أو أمرية، ومع ذلك لا تقوم في الوقت نفسه بوصف أي شيء، ولا يمكن أيضا الحكم عليها بمعيار الصّدق أو الكذب.[5]

---

(1)– ينظر: بهاء الدين محمد يزيد: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي–تبسيط التداولية–، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1471هـ/ 2010م، ص 20.

(2)– خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية–مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم–، بيت الحكمة للنشر و التوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 1430هـ/2009 م، ص 62.

(3)– ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 9.

(4)– المرجع نفسه، ص ص 9– 10.

(5)– المرجع ن، ص 9. وجواد ختام : التداولية أصولها و اتجاهاتها، ص 20.

فحسب رأيه، ثمّة جمل خبرية لا تصف العالم والواقع الخارجي، ولا يمكن أن نقول عنها أنها صادقة أو كاذبة وإنّما مهمتها تغيير العالم لا وصفه.

وطوّر "سيرل" بعد أستاذه، هذه الأفكار واستفاد من الانتقادات التي وُجّهت إليه، وميّز بين الأفعال اللغوية من جهة، والتركيز على مقاصد المتكلمين من جهة أخرى، كما كان من أكبر إسهاماته تحديده للشروط التي بمقتضاها يكلّل الفعل الإنجازي بالنجاح، كما وسّع مفهوم الفعل الكلامي وقدّم تصنيفا جديدًا للأفعال الكلامية.[1]

وهكذا تطورت هذه المفاهيم عند "سيرل"، وبعض فلاسفة اللغة من بعده أمثال "غرايس"...لتظهر بعدها جملة من النظريات التي تشكّل مجتمعةً ما يُعرف باللسانيات التداولية (أفعال الكلام، الاستلزام الحواري، الإشاريات، الحجاج...إلخ)، وتمكّنوا من تطوير آليات اشتغالها مُراعين بذلك البعد الداخلي والخارجي للغة، من خلال التركيز على العوامل الخارجية المتحكمة في عملية التخاطب.

المطلب الثالث: مهامُّها وأهمّيتُها

1-مهامّها:

بالنّظر إلى ما طرحناه سابقا علمنا أنّ موضوع التداولية هو الطريقة التي تُؤوّل بها التراكيب اللغوية في المقامات المختلفة، والتي تستعمل للتعبير عن مقاصد محددة، فالمتكلم والمخاطَب والمقام وظروفه، وكلّ ما من شأنه إحداث نوع من التّفاعل، وترك الأثر في العملية التّخاطبية، له دورٌ كبير في تحديد المعنى و التّأثير على المتلقّين والذي يُعدُّ غاية التواصل. لذلك يمكن أن نلخّص مهام التداولية فيما يلي: [2]

-دراسة اللغة أثناء التّلفّظ بها في السياقات والمقامات المختلفة، فالاستعمال هو النشاط الرئيس الذي يمنح اللغة طابعها التداولي، ومن هنا يتحدد القصد والغرض من الكلام.

[1]- ينظر: آن روربول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 33.

[2]- مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب، ص ص 26- 27. وحافظ إسماعيل علوي: التداوليات-علم استعمال اللغة-، ص 40.

—شرح كيفية حدوث العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات، وذلك من خلال دراسة مبادئ الاستدلال وقواعده، والتي تمكّن المتكلم من إحكام صياغة عباراته اللغوية بما يستجيبُ لأغراضه في المقامات التواصلية التي يكون فيها.

—دراسة شروط نجاح العبارات، وصياغة شروط ملائمة الفعل لإنجاز العبارة، ومدى ملائمة كل ذلك لبنية الخطاب ونظامه، فهي تقوم بمهمّة دراسة الشروط التي تضمن النجاح والفعالية لكلّ استعمال لغوي، وفقًا لما يقتضيه كلّ موقفٍ تواصليّ.

—وتسعى كذلك لبيان كيف يمكن للتواصل الضّمني أن يكون في الاستعمال أفضل من التواصل الحرفي المباشر.[1]

—دراسة كيفية إنجاز الأفعال من خلال القول، وبيان أنّ إنجاز الفعل تتداخل فيه عدة جهات خاصة (اجتماعية نفسية، ثقافية، وسياسية).[2]

—من مهام التداولية أيضا، أنها تدرس مكوّنات التّخاطب (المخاطِب والمخاطَب والخطاب والسياق)، وتأثيرها في المقولات اللغوية من ناحية التفسير والتّأويل.[3]

2–أهمّيتها:

إنّ للاتجاه التداولي أهميّة بالغةٌ في الدرس اللغوي المعاصر، فعلى الرغم من اتّساع جوانب الدرس فيه، وتعدد الموضوعات التي لا يجمع بينها غير ظواهر الاستعمال، فهو يقدّم دراسة مميزة للغة في تجلّياتها الحية.[4] ذلك أنّ التداولية قد دمجت المستويات اللغوية المختلفة في منظومة واحدة، وقامت بدراسة اللغة على أساسها أثناء

(1)– ينظر: باديس لهويمل، نور الهدى حسني : مداخل اللسانيات التداولية في الخطاب البلاغي العربي–متابعة تداولية–، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مجلة نصف سنوية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، ع2، ديسمبر 2017، ص 43.

(2)– ينظر: المرجع نفسه، ص نفسها.

(3)– ينظر: بشرى البستاني: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب، لندن، إنجلترا، ط1، 1473هـ/ 2012، ص 38.

(4)– ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 52.

الاستعمال، فتجعل المتكلم يرتبط بالمقام، ومن ثمّ فإنّه يتنبّأ بما يستلزمه الموقف التخاطبي، ليراعيه أثناء إنجاز خطابه وبذلك « يغدو معنى الملفوظات هو القيمة التي يكتسبها الخطاب في سياق التّلفّظ ».[1]

أي أن المعنى كقيمة لما يتمّ النّطق به، لا تتحكم فيه اللغة بقدر ما يتحكّم فيه مستعملوها، وبذلك فإن مستعمل اللغة يستطيع ضمان حصول عملية الفهم والإفهام، من خلال توظيفه لمستويات اللغة بما يستجيب لمقاصده، معتمدا في ذلك على السياق بعدّه مؤثّرًا مهمًّا في نظام الخطاب وإنجاح التّواصل، وهذا ما ركّزت عليه التّداولية.

وتتجلّى أهميتها أيضا في كونها «مشروع شاسع في اللسانيات النّصية، تهتم بالخطاب ومناحي النصية فيه نحو: المحادثة، المحاججة، التضمين (...)، ولدراسة التواصل بشكل عام، بدءًا من ظروف إنتاج الملفوظ إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلامية قصد محدّد، إلى ما يمكن أن تنشئه من تأثيرات في السامع، وعناصر السياق ».[2]فهي إلى جانب مراعاتها للعوامل النصية و الاجتماعية والثقافية، تسعى إلى إحداث تغيرات معينة لدى المتلقين من خلال وضع شروط تضمن نجاح عملية التواصل.

المطلب الرابع: نظرية أفعال الكلام

تُعدُّ نظرية أفعال الكلام، أو الأفعال اللغوية، نموذجًا صريحًا للدّرس التداولي القائم على مبدأ الاستعمال اللغوي إذ تنطلق من مسلّمة مفادها أن الأقوال الصّادرة عن المتكلمين، ضمن سياقات محددة، تتحول إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية ((3))، فهي تهدف إلى إبراز أثر المنطوق اللغوي الذي يترتّبُ عنه إنجاز حدثٍ اجتماعي ما، ممّا يجعل هذا الفعل جزءًا من التفاعل الاجتماعي.

ولأنّها أهمّ الجوانب التي يقوم عليها البحث التداولي والمتمثّلة في: الإشاريات، الافتراض المسبق، الحجاج، الاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية، سنحاول فيما يلي الوقوف عليها في مرحلتين أساسيتين لها، هما: مرحلة

---

(1)- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية- ، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 1465هـ/ 2004م، ص ص 22- 23.

(2)- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص 135.

(3)- ينظر: فان دايك : النص والسياق-استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي- تر: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1421هـ/ 2000م ص 227.

الظهور والتأسيس عند "أوستن"، ومرحلة البناء والضّبط المنهجي عند "سيرل"، مبيّنين في ذلك مفهوم الفعل الكلامي، وما يقابله في الدرس اللغوي العربي القديم، وموقع الأسلوب الاستفهامي ضمن مسائل هذه النّظرية.

1- مفهوم الفعل الكلاميّ وملامحه في التّراث اللّغوي العربيّ:

أوّلاً- مفهومه:

لعلّ المتّفق عليه بين الباحثين، أنّ فعل الكلام يعني لغةً ما أو التحدّث بما يعني تحقيق أفعال لغوية [1] أي أنّه بمجرّد التلفّظ به يُؤدّي إلى وقوع الفعل وإحداث أمر ما.

وانطلاقًا من هذا المبدأ أو المفهوم، يمكن أن نحصي له مجموعة من التعريفات :

هو« الوحدة الصغرى التي بفضلها تُحقق اللغة فعلاً بعينه (أمر، طلب، تصريح، وعد..)، غايته تغيير حال المتخاطبين ».[2]

أي أنه أصغر وحدة لغوية يتمّ بواسطتها تحقيق أفعال معيّنة، الهدف منها إحداث نوع من التأثير في المتلقي وتغيير حالته.

وقيل كذلك بأنّه « كلُّ ملفوظٍ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وفضلا عن ذلك، يُعدُّ نشاطًا مادّيا نحويا يتوسّل أفعالاً قولية (...) لتحقيق أغراض إنجازية(...) كالطلب والأمر والوعد(...)وغايات تأثيرية (...) تخصُّ ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول ».[3]

ما نفهمه من هذا القول، أن الفعل الكلامي يُراد به الإنجاز الذي يؤدّيه الإنسان بمجرّد نطقه بمنطوقات محددة، من خلال منظومة من الأفعال القولية تطمح لتحقيق غايات إنجازية وأخرى تأثيرية.

---

[1]- ينظر: نعمان بوقرة: نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية –قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية- ، مجلة اللغة والآداب مجلة نصف سنوية، قسم اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، ع1، 1جانفي 2006م، ص 169.

[2]- دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 1428هـ/ 2008م، ص 7.

[3]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 40.

من جهة أخرى، ذهب بعضهم إلى وصفه بكونه « مجموعة الأقوال غير الوصفية التي لا يمكن أن نسند إليها أي قيمة صدقية، والتي لها طبيعة إنجازية، أي الأقوال التي يمتزج فيها القول بالفعل ».[1]

من خلال عرض هذه الأقوال، يمكن أن نخلص إلى أنّ "الفعل الكلامي" هو فعل القول المتلفّظ به في سياق لغوي ما، يُراد به إنجاز أمرٍ يؤدّيه النّاطق به بمجرّد التّلفّظ به، بُغية تحقيق أغراضٍ وأهداف من خلال تأثيره في المتلقي.

ومثلما تعددت تعريفاته، فإنّ تسمياته كذلك كثُرت، فيُطلق عليه اسم "الفعل اللغوي" أو "الحدث اللغوي" أو "الحدث الكلامي"، ويُدعى أيضا "فعل الخطاب" أو "الفعل التخاطبي"، وثمّة من جعله مرادفًا "للفعل الإنجازي".

وممّا يرتبط ارتباطًا شديدًا بالفعل الكلامي، مفهوم "القصد"؛ إذ حظيت مقاصد المتكلم باهتمام كبير في البحث التداولي المعاصر، حيث تناولت التداولية قضية المقاصد والنوايا في سياق دراستها للفعل اللغوي، والتي تختلف باختلاف الوضعية السياقية التي يؤدّي فيها المتكلمون خطاباتهم.[2]

ثانيًا– ملامحه في التّراث اللّغوي العربيّ :

وأمّا عن موقع الفعل الكلامي في التُّراث العربي، فقد بُحِثت هذه الظاهرة ضمن نظريّة "الخبر والإنشاء"؛ إذ اشتغل علماء العربية القدامى على اختلاف توجّهاتهم، من نحاةٍ وبلاغيين وأصوليين، على دراسة معاني الكلام ضمن مباحث نظريتهم هذه، واهتموا في ذلك بالمقامات التخاطبية، وأحوال ومقاصد المتخاطبين.[3]

وقد كان للعلماء العرب القدامى وعيٌ كبيربالجانب التداولي الاستعمالي للغة، لأنّ ما قدّموه ضمن هذا المجال لا يختلف كثيرا عمّا تعرضه نظرية أفعال الكلام في الدرس اللساني الغربي الحديث.

وثمّة معايير أخرى اعتمدها العلماء العرب في تمييزهم بين "الخبر والإنشاء" بخلاف معيار الصدق والكذب، من قبيل: معيار القصد.[1]

---

[1]– سعيد محمد علي آل سرور: الأفعال الكلامية اللغوية المباشرة وغير المباشرة في كتاب ذكريات للطنطناوي–دراسة تداولية وفق نموذج سيرل في حلقة ذكريات لا مذكرات–، المجلة العربية للنشر العلمي، مجلة دورية، رماح، الأردن، ع38، 2 كانون الأول 2021م، ص 5.

[2]– ينظر: نعمان بوقرة : نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية، ص 170.

[3]– ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص ص 6-7.

والأفعال الإنشائية في الدرس العربي، تُعدُّ قرينة لمفهوم الأفعال الكلامية عند واضع أسسها الأول "أوستن"، ومطوّرها تلميذه "سيرل" في الدرس التداولي الغربي، فقد اعتنى علماء العربية بهذه المعاني الإنشائية ونخصّ بالذّكر على سبيل المثال لا الحصر، البلاغيين منهم، وذلك انطلاقًا ممّا تحمله هذه الأساليب من دلالات نحوية وضعية أولاً، وما يترتّب عنها من أغراضٍ ومعانٍ سياقية ومقامية، تختلف عن معانيها الأولى ثانيًا.

والأسلوب الاستفهامي الذي هو مدار هذه البحث، يُعدُّ في طليعة الأفعال الكلامية التي تتجاوز معناها الأصلي إلى معنى مقامي، وهو ما سمّاه التداوليون بالمعنى السياقي أو معنى المتكلم، والذي يُستفاد من الاستفهام لكونه لفظًا، ومن مقتضى الحال بعدّه معنًا مقاميًّا.

يقول "صلاح فضل" :« ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطّي بطريقة منهجية منظمة، المساحة التي كان يُشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال)، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال) ».[2]

فالمعنى المقامي أو التداولي للاستفهام يتولّد عن عدم التّناسب بين اللّفظ والمقام، لذلك يتّفق أصحاب نظرية أفعال الكلام على أنّ « اللغة مرتبطة بقصد المتكلم، من حيث هي إنشاء لفعل على مستوى السامع أو غيره، وبذلك فهي ليست أصوات تعبيرية فحسب، بل هي أفعال ناشئة عن قصد المتكلمين بإفادة الكلام، حتى أن المتكلم لا يسمى متكلمًا إلا لفعل الكلام الذي ينشئه ويؤدّيه ».[3] وهذا ما يفسّر قول "أوستين" في حديثه عن الفعل اللغوي : (القول هو الفعل)، أو (عندما نقول فنحن نفعل).[4]

من خلال ما تقدّم، باستطاعتنا القول أنّ ثنائية "الخبر والإنشاء" ضمن الدرس اللغوي العربي، تُكافئ الفكرة التي قدّمها "أوستن" ومن معه في إطار نظرية الفعل الكلامي. وهذا ما عبّر عنه "أحمد المتوكل" بالقول :« من

---

(1)- ينظر: المرجع نفسه، ص 58.

(2)- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 21.

(3)- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص 202.

(4)- ينظر: جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة –كيف ننجز الأشياء بالكلام- تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1412/ 1991م، ص ص 17-18.

المعلوم أن الفكر اللغوي العربي القديم يتضمن ثنائية (الخبر/ الإنشاء) التي تُشبه إلى حدٍّ بعيد الثنائية الأوستينية (الوصف/الإنجاز) كما يدلُّ على ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء ».[1]

2– الأفعال الكلامية عند "أوستين" (مرحلة التأسيس) :

سبق وذكرنا أنّ الفضل الأول في تأصيل مفاهيم هذه النظرية، يعود لـ "جون أوستين" حين وضع جملة محاضرات ومقالات ضمّنَها جهوده بخصوص الأفعال الكلامية والتي خرجت إلى العلن تحت عنوان (كيف ننجز الأشياء بالكلمات) "How to do things with words". ويمكن أن نستجمع إسهاماته بتصنيفها إلى المراحل التالية في عرضٍ موجزٍ كما يلي:

أوّلاً: تقسيمه الجمل إلى جملة إخبارية (Constative) وجملة إنجازية (Performative):

حيث أنّ الإخبارية تصف واقعًا معين، وتحتمل الصدق والكذب انطلاقًا من الواقع الموصوف، وأمّا الإنجازية فإننا ننجز بها أفعالاً في سياق ما. وقد بنى "أوستين" تقسيمه هذا على أساس أنّ مواصفات الجمل الإنجازية تتمثل في كونها :[2]

– جملٌ تقال لا لوصف أو سرد أو تصوير أي شيء، فهي ليست صادقة أو كاذبة.

– جملٌ يكون التّلفّظ بها جزءًا من القيام بفعل، لا يوصف عادة أنه مجرد قول شيء.

وبعدها يتساءل "أوستين" عن سبب تسمية هذا النوع من الجمل بـ "الإنشائية"، ويُجيب عن ذلك بقوله: « ولقد أُشتقَّ لفظ "الإنشاء" من الفعل أنشأ "perform" وهو فعل يستخدم في اللغة الإنجليزية عادة مع الاسم الحدث "action" ويدلّ على أن إحداث التلفظ هو إنجازٌ لفعل، وإنشاءٌ لحدث ».[3]

وقد كشف عن طبيعة هذين الصّنفين باعتبار أنّ الملفوظ في الإخباريات قائمٌ على المطابقة مع الواقع، أو ما يوجد في العالم الخارجي، بينما في الإنشائيات فقائمٌ على الملائمة بين القول وإنجازه.

---

[1]– أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية –مدخل نظري– دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا، ط2، 1431هـ /2010م، ص 42.

[2]– ينظر: جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة، ص 16.

[3]– جون أوستين : نظرية أفعال الكلام العامة ، ص 17.

ثانيًا: تحديده لشروط نجاح الفعل الأدائي أو العبارة الإنجازية.

قسّمها الباحثون إلى قسمين، شروطٌ تمهيدية أو تكوينية، وشروطٌ قياسية.

أ– الشروط التمهيدية أو التكوينية، وتتمثل في:[1]

– وجود إجراء عرفي مقبول، وله أثر عرفي معين كالزواج، حيث يشتمل هذا الإجراء على كلمات محددة ينطق بها أفراد معينون في ظروف معينة.

– أن يكون الناس مؤهلين للقيام بهذا الإجراء.

– أن يكون التّنفيد صحيحًا وكاملاً من قبل جميع المشاركين.

ب– الشروط القياسية، وتتمثل في:

– أن يكون المشارك في الإجراء صادقًا في أفكاره ومشاعره.

– أن يكون المشارك في الإجراء صادقًا في نواياه بحيث يلتزم بما يلزم نفسه به.

وبعد بيان هذه الشروط، قسّم هذه الأفعال الأدائية إلى نوعين :[2]

– أفعال أدائية صريحة، ومثّل لها بـ: (أعدك أن أكون هناك).

– أفعال أدائية أولية، ومثّل لها بـ: (سأكون هناك).

والفرق بينهما أنّ الأول صريح الدلالة على الوعد (الغرض الإنجازي)، ولا نرى أنّه يحتمل غيره، بينما الثاني قد يكون وعدًا وقد لا يكون.

ثالثًا : تقسيمه لمكوّنات الفعل الكلامي الكامل.

---

[1]–محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ص 64–65. وجواد ختام : التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 88.

[2]–جون أوستين : نظرية أفعال الكلام العامة، ص 87.

لقد قاد التساؤل القائل بـ :« كم معنى هناك على أساسه يكون قول شيء هو نفسه فعل شيء، أو يكون متضمّنا في قولنا فعلنا لشيء معين أو يكون بواسطة قولنا شيئًا فعلنا لشيء ما ».[1] " أوستين " إلى استنتاجٍ مفاده أن الفعل الكلامي مركّب من ثلاثة أفعال فرعيّة، تُؤدّى معا في الوقت نفسه الذي يُنطق فيه الفعل الكلامي، فهي مرتبطة ببعضها لا يمكن فصلها، وهذه الأفعال الثلاثة هي :[2]

– فعل القول (Locutionaryact): ويُراد به إطلاق الألفاظ في جملٍ مفيدة سليمة نحويًّا ودلاليًّا، ويقع دائمًا مع كل فعل، وهو وإن أعطى معنى ذلك القول، فإنه يبقى غير كافٍ لإدراك أبعاد ذلك القول. فقولنا مثلاً: (إنها ستمطر)، يسهل عليما فهم معناها، لكنّا لا نستطيع أن نحدّد إن كانت إخبارًا بأنها ستمطر، أم تحذير بعواقب الخروج أو أمرٌ بأخد مظلة...إلاّ بالعودة إلى قرائن السياق لمعرفة قصد المتكلم وغرضه من العبارة.

– الفعل المتضمن في القول (Illocutionaryact) : وهو الفعل الإنجازي، فهو العمل المنجز بقولٍ ما. ومن أمثلته السؤال أو إجابة السؤال، تقديم معلومات أو تأكيدات، إصدار تحذير...ويفرق عن فعل القول في كونه يمثل القيام بفعلٍ ضمن قول شيء بينما الأول يعني القيام بفعل من خلال قوله.

– الفعل النّاتج عن القول (Perlocutionaryact): وهو الفعل التأثيري؛ إذ يرى "أوستين" أنه مع القيام بالفعلين السابقين، يكون المتكلم قائمًا بفعلٍ ثالثٍ هو التسبب في آثار يلحقها بالمخاطب، من قبيل: الإقناع التضليل، الإرشاد...إلخ.

رابعًا: تصنيفه لأنماط الأفعال الكلامية بحسب القوّة الإنجازية.

تُعرّفُ القوّة الإنجازية على أنّها « الشدّة والضّعف اللّذان يُعبّر بهما عن الغرض الإنجازي في موقفٍ اجتماعي معيّن أيًّا كان هذا المؤشر أو العلامة الدالّة على ذلك ».[3]

---

[1]– Austin : Quand dire, C'est faire, introduction, traduction, et commentaire par Gilles Lane, postface de françoisRécanti, Edition du Seuil, 1970, P 108 . نقلاً عن : خلوفي قدور: مستويات الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني– سورة الكهف أنموذجا– (أطروحة دكتوراه في اللسانيات التداولية)، إشراف: بن عيسى عبد الحليم، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2014م/2015م، ص ص 25-26.

[2]– ينظر: مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب، ص ص 41-42.

[3]– عبد القادر البار : نظرية الفعل الكلامي عند أوستن، مجلة كلية الآداب واللغات، مجلة دورية، كلية الآداب، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع22، ج1، جانفي 2018م، ص 138.

واستنادًا إلى هذا المفهوم، يقسّم "أوستين" الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف، تتجلّى في :[1]

– **أفعال الأحكام** (**Verdictivers**): وهدفها إصدار حُكمٍ أو قيمة على واقعٍ ما، ولا يكون الحكم نهائيا، فقد يكون تقديريا أو على هيئة رأي، ومن أمثلتها: حكم، برَّأ، قيَّم، حسب، قدَّرَ...إلخ.

– **أفعال القرارات** (**Exercitifs**) : وهي التي تعبّر عن اتخاذ قرار أو ممارسة لصالح أو ضد شخص ما، ومثالها: عيّنَ، سمّى، صوّتَ، صرَّح، نهى، أمَرَ...إلخ.

– **أفعال التعهّد** (**Commissives**) :وهو كل فعل يعبّر به المتكلم عن وعد أو تعهد بفعل شيء ما، أو تكون إفصاحا عن نواياه، مثالها: وعَدَ، نذَرَ، أقسم، راهن، عقَّدَ، عَزَم، نوى...إلخ.

– **أفعال السلوك** (**Behabitives**) : وهو كل فعل يعبر عن سلوك معين اتجاه ما يحدث للآخرين، مثل: اعتذر، وبّخ، هنّأ، تعاطفَ، عزّى، شكَرَ، بارك، مدَحَ، انتقدَ...إلخ.

– **أفعال الإيضاح** (**Expositives**) : وهو كل فعل يُؤتى به لتوضيح وجهة نظر، وذكر الحجة، فالهدف منها النقاش والتبرير، مثالها: أثبتَ، أنكر، اعترض، شرح، فسّر، ردّ، اعترف، وافق...إلخ.

3– الأفعال الكلامية عند "سيرل" (مرحلة البناء).

تمكّن "جون سيرل" من احتواء أفكار أستاذه "أوستين" واستغلالها في توضيح مسائل هذه النظرية، وأن يُضفي عليها طابعًا تطوريًّا، حيث عرفت نظرية أفعال الكلام معه نُضجًا وضبطًا منهجيًّا كبيرا، على حدّ تعبير بعض الباحثين.[2]

ويمكن أن نجملَ أهمّ الإسهامات والإضافات التي قام بها "سيرل" في العناصر التالية :

[1]– ينظر : المرجع نفسه، ص 175. وطالب سيد هاشم الطبطبائي : نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص 10. و محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 69.

[2]– ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 59.

أوّلاً : إعادة تقسيمه لمكوّنات الفعل الكلامي الكامل.

عدَّل "سيرل" التقسيم الثلاثي الذي قدّمه "أوستين" للفعل الكلامي، وجعله أربع أقسام، حيث أبقى على الفعل الإنجازي والفعل التأثيري، في حين فرَّع فعل القول إلى جزئين هما:

– الفعل النطقي (Utterenceact) : « وهو يشمل الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية ».[1]

–الفعل القضوي (Propositionalact) : « وهو يشمل المتحدّث عنه أو المرجع reference والمتحدّث به أو الخبر predication ».[2]

ثانيًا : تصنيفه للأفعال الإنجازية.

أعاد "سيرل" النّظر في التصنيف السابق لـ "أوستين"، وقدّم بديلاً رأى بأنه أكثر إحكامًا وضبطًا، وهي عنده خمسة أصناف تتمثل في :[3]

– الأفعال الإخبارية (Assertives): غرضها الإنجازي نقل المتكلم واقعةً ما عبر قضية يعبر بها عنها، واتجاه المطابقة فيها يكون من الكلمات إلى العالم، وشرط الصدق فيها هو الأمانة في النقل، وينطبق عليها معيار الصدق والكذب، مثالها: (سأسافر غدًا).

– الأفعال التوجيهية (Directives): غرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى القيام بأمر ما، واتجاه المطابقة فيها يكون من العالم إلى الكلمات، وشرط الصدق هو الإرادة، مثالها: (أُخرُج).

– الأفعال الالتزامية (Commissives): غرضها الإنجازي التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل، واتجاه المطابقة فيها يكون من العالم إلى الكلمات، وشرط الصدق هو الإخلاص، مثالها: (سوف آتي).

---

(1)–محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ص 71- 72.

(2)- المرجع ن، ص 72.

(3)- ينظر : فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر : صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1، 1428هـ/ 2007م.ص 66. وجواد ختام : التداولية أصولها واتجاهاتها، ص ص 93-94. ومحمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) – دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ –، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1433هـ/ 2012م، ص ص 106- 107.

– **الأفعال الإعلانية (Declaratives)**: غرضها الإنجازي إحداث واقعة، واتجاه المطابقة فيها يكون من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا تحتاج شرط الصدق، مثالها: (أُعلن الحرب عليكم).

– **الأفعال التعبيرية (Expreessives)**: غرضها الإنجازي التعبير عن الحالة النفسية، شرط توفر النية الصادقة وليس فيها اتجاه مطابقة، لأن المتكلم لا يحاول جعل الكلمات تطابق العالم الخارجي، ولا العالم الخارجي يطابقها ومثالها: (أُعذرني).

ثالثًا : التمييز بين الفعل الكلامي المباشر وغير المباشر.

لعلَّ أهمّ ما توصل إليه "سيرل" خلال مساعيه في تطوير نظرية أفعال الكلام ومفاهيمها، هو تفريقه بين نوعين من الدلالة، الدلالة الحرفية والتي تعرف "بالقوة الإنجازية الحرفية"، والتي ترتبط مباشرة بالمعنى اللغوي والمعجمي لمكونات الجملة، والدلالة غير الحرفية والتي تعرف " بالقوة الإنجازية المستلزمة "، والمتأتية من تصرّف المتكلمين في المعنى من خلال ظروف خطابهم ومقاصدهم، وكيفياتهم الكلامية.

وبالتالي هذا ما قاده غلى التمييز بين الأفعال الكلامية من حيث دلالتها على القوة الإنجازية إلى:

– **الأفعال الكلامية المباشرة (Direct)**: ويطلق عليها أيضا وصف "الحرفية" أو "الأولية" [1]، وهي « التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم، فيطابق ما يعنيه ».[2]بحيث أن المتكلم يتلفّظ بها وهو يعني حرفيا ما يقول، فدلالتها الفعلية تظهر من صريح العبارة.

– **الأفعال الكلامية غير المباشرة (Indirect)**: وهي التي تخالف فيها قوّتها الإنجازية مراد المتكلم [3]، فالفعل الإنجازي يُؤدّى على نحوٍ غير مباشر من خلال فعلٍ إنجازيٍ آخر، وعلاوةً على ذلك فمعاني هذه الأفعال

[1]– ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 80.

[2]– محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، ص 108.

[3]– ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

لا يمكن كشفها إلاّ عن طريق الفهم الدقيق للعبارة اللغوية، وتوظيف مهارة العمليات الذّهنية التي تتفاوت من حيث البساطة والتركيب [1].

فميزة الأفعال الكلامية غير المباشرة إذن، أن دلالتها الفعلية لا تظهر صريحة في عبارة المتكلم، وإنما تأويلها وفهمها يتطلب الرجوع إلى عوامل السياق التي تُؤطّر العملية التخاطبية.

كما يرى "سيرل" أنّه في إمكان المتكلم التعبير بمحتوى قضوي واحد، عن معنى أو معانٍ عدّة؛ أي عند إنجازه لفعلٍ واحد هو في الحقيقة ينجز أفعالاً عدّة في الآن نفسه، وذلك بحسب نيته الكلامية ومقصده الخطابي المرتبط بخصوصيّته كمتكلم، وبالعوامل السياقية والمقامية لموقفه التخاطبي[2]. وهو ما يُعادل مقولة : أن يقول المتكلم شيئًا وهو يعني شيئًا آخر.

ومن بين الأمثلة التي يضربها "سيرل" لبيان هذه الفكرة: [3]

قول الرجل لرفيقه على المائدة: هل لديك الملح؟، له معنيان، أولها أصلي هو السؤال ويُفهم من ظاهر العبارة وثانيهما معنى غير مباشر وهو الطلب. فاستئذان المخاطب في طلبٍ مهذّب عبر معنى فعل إنجازي غير مباشر هو (ناولني الملح من فضلك)، أو (أطلب منك أن تناولني الملح).

وعليه تكون القوة الإنجازية الحرفية في هذه العبارة هي الاستفهام، والقوة الإنجازية المستلزمة هي الطلب، فمن خلال ظروف السياق المحيطة بكلا الرجلين، كونهما يتشاركان الطاولة نفسها في مكانٍ ما، جعل المخاطَب يؤوّل سؤال المتكلم على أنه طلب وليس لمجرد الاستفسار.

---

(1)- Searle : Sens et expression, études de théorie des actes de langage, traduction et préface par Joelle Proust, Ed de minuit, Paris,1981, P49 . نقلاً عن: خلوفي قدور: مستويات الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني – سورة الكهف أنموذجا- ، ص 40.

(2)- ينظر: وهيبة عقاقلية: الفعل الكلامي وسلطة التّلفّظ في ظلّ فلسفتي الفعل والعمل، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلة نصف سنوية، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، مج 9، ع 3، 2020/9/15م، ص 185.

(3)- ينظر: محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، ص 108.

وفي مناقشته للفعل الكلامي غير المباشر، يطرح "سيرل" إشكالاً مفاده: كيف يقول المتكلم شيئًا وهو يعني شيئًا آخر؟ ومن ثم كيف للمتلقي أن يسمع شيئا له معنى ويفهم منه معنى آخر؟ [1]، مشيرًا إلى أن المشكلة في الأفعال الإنجازية غير المباشرة هي أن هيئتها التركيبية لا تدلّ على زيادة في المعنى الإنجازي الحرفي وإنما هذه الزيادة تحد فيما يُعرف **"بمعنى المتكلم" (Speaker meaning)**، والمرتبط بمقاصده التي ينوي إيصالها [2].

فالمتكلم يتحكم في المعنى طبقًا لمقاصده، وعلى السامع محاولة القيام بجملة من العمليات الذهنية الاستدلالية تمكّنه من تجاوز المعنى الحرفي للخطاب، ومن ثم الوصول إلى المعنى غير المباشر.

وهذا ما سمّاه "سيرل" بـ **" استراتيجية الاستنتاج " (Strategy Infernte)** [3]. والتي نفهم أنها متعلقة بالمتلقي في كيفية اهتداءه للمعنى المطلوب، في مقابل **" معنى المتكلم " (Meaning Speaking)**، والمتعلق بتصرّف المتكلم في المعنى على نحوٍ يخدم أغراضه، وهو المراد من الفعل الكلامي غير المباشر.

المطلب الخامس: نظرية الاستلزام الحواري

إنّ الإشكال الذي توصّل إليه كلّ من " أوستين " و"سيرل "، المتمثّل في استعمال المتكلمين للفعل اللغوي غير المباشر –والذي يُمكّن من التّلفّظ بمنطوق ما، والقصد منه أمر آخر–، أكثر من الفعل اللغوي المباشر، ممّا قد يُصعّب على المتخاطبين الإمساك بالدلالة المقصودة من الخطاب في حالة ما لم تكن العوامل السياقية كافية، أو فشل المتلقي في القيام بالعمليات الذهنية الاستدلالية التي توصّله إلى فكّ الرسالة والقبض على المعنى المراد، فيما يُعرف باستراتيجية الاستنتاج، قد دفع بالكثير من اللسانيين المعاصرين إلى محاولة توسيع مفاهيم نظرية أفعال الكلام عمومًا، والتّصدّي لهذا الإشكال خصوصًا. وعلى رأسهم نجد الفيلسوف الأمريكي "بول غرايس" الذي سمّى هذا الوضع بظاهرة "الاستلزام الحواري"، والتي ترتكز على مبدءٍ أساسي مفاده أنّ استعمال اللغة هو ضربٌ من التعاون بين المتخاطبين، وأنّ نجاح التحاور بينهم مربوط بغضّ النّظر عن ظروف الخطاب و قرائنه، بمدى تقديم المساعدة لبعضهم البعض بُغية الوصول بحوارهم إلى أبعد درجة ممكنة من التفاعل والتفاهم، وهو ما سمّاه "غرايس" بـ "مبدأ التعاون"، والذي اشتقّ منه مجموعةمن القواعد تُعرف بقواعد المحادثة أو قواعد الخطاب، والتي يفترض

---

[1]– ينظر: . Searle : Sens et expression, P 72. نقلاً عن : خلوفي قدور: مستويات الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني – سورة الكهف أنموذجًا–، ص 41.

[2]– ينظر : خلوفي قدور : المرجع نفسه، ص ن.

[3]–محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 82. و محمود عكاشة : النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، ص 109.

"غرايس" أنّ احترام المتخاطبين لها يُيسّر عملية التحليل وفهم المقصود المستهدف وذلك يعني التفريق بين ما يُقال، وما يُستلزم خطابيًا.

1- في نشأة النظرية:

تُعدُّ نظرية الاستلزام الحواري إحدى أهمّ المباحث التي تقوم عليها الدراسة اللسانية التداولية للغة، وذلك لما تكشف عنه من دلالات خفيّة يُؤدّيها المتخاطبون، وتُعين على فهمها والوصول إلى تحقيق مقصدية المخاطِب في إثبات ما يصبو إليه.

وهي ظاهرة حديثة المعالجة، ترجع نشأة البحث فيها إلى المحاضرات التي ألقاها "بول غرايس" في جامعة "هارفارد" عام (1967م) بعنوان "المنطق والتخاطب"، وأخرى في (1971م)بعنوان "الافتراض المسبق والاقتضاء التخاطبي".[1]

وتسمى أيضا بنظرية الاستلزام التخاطبي أو نظريّة التّخاطب، ومنطلقها أنّ الجمل اللغوية في اغلبها تدلُّ على معانٍ صريحة وأخرى ضمنية تتحدد دلالتها داخل السياق الذي وردت فيه، فتلك الدلالة الضمنية أي غير المباشرة هي الاستلزام الحواري للمعنى المباشر الصريح، وذلك باعتبار أنّ المتكلم يقول كلامًا ويقصد غيره، وبالتالي فالعبارات اللغوية لا تتحدد فقط فيما تدلّ عليه صيغها الصورية والتي يُراعى ارتباط معناها أيضًا بسياقات إنجازها وإنّما يلزم إيجاد تأويل آخر يُحتّم الانتقال من معنى صريح إلى معنى مستلزم.[2]

وتتعلّق هذه النّظرية بالحوار والمحادثة، وتقوم على فكرة جوهرية مفادها « أنّ الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر ممّا يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون ».[3]

فحاول "غرايس" انطلاقًا من ملاحظته، إيضاح الفرق والاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد، فالأول هو ما دلّ عليه ظاهر اللفظ وأمّا الثاني فيُستفاد من الأول، وهكذا نشأت عندهُ فكرة الاستلزام.

---

[1]-محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 33.

[2]- ينظر: العياشي أدرواي : الاستلزام الحواري في التداولي اللساني – من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها – منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 1432هـ/ 2011م، ص ص 7-8 .

[3]- محمود أحمد نحلة : المرجع السابق، ص ن.

2–مفهوم الاستلزام الحواري :

يُعدُّ الاستلزام الحواري من أبرز المفاهيم في البحث اللساني التداولي، وهو في " القاموس الموسوعي للتداولية " يُعرّفُ على أنّه حسب "غرايس":« التمييز الأساسي بين ما يُقال في القول وما يستلزم خطابيا (implicated)، فالمحتوى الّذي يبلّغه المقول يوافق المحتوى المنطقي للقول، أي المظاهر الصدقية، أما المستلزم خطابيا فيحدد سلفًا بأنّه ما يُبلّغ بعد طرح ما يُقال، بعبارة أخرى تخصُّ الاستلزامات الخطابية أساسا المظاهر غير الصدقية للأقوال».[1]

ما نفهمه أنّ "غرايس" يفرّق بين المعنى الذي نستشفُّه من ظاهر القول والمعنى الذي يتضمّنه هذا القول، فالأول صريح والثاني غير كذلك، ومن ثمّ كيف يكون الانتقال من الأول إلى الثاني هو المستلزم خطابيًّا.

فالمعنى المستلزم يدلّ عليه المعنى الحرفي، والمتكلم لا يصرّح به، ويريد أن يبلّغه للسامع بطريقة غير مباشرة، ونوضّح الفكرة بالمثال التالي: [2]

يدور الحوار الآتي بين الأستاذين (أ) و(ب):

الأستاذ (أ): هل الطالب (ج) مستعدّ لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟

الأستاذ (ب): إنّ الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز.

لاحظ "غرايس" أنّ الجملة الثانية ذات معنيين في الوقت نفسه، أحدهما حرفي ويتمثل في أن الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين، وآخر استلزامي وهو أنّ الطالب المذكور ليس مستعدا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة.

فهذه الظاهرة هي ما أسماه "غرايس" بـ " الاستلزام الحواري".

3 – أنواع الاستلزام الحواري :

ميَّز "غرايس" بين نوعين هما:

[1]– آن ريبول وجاك موشلار : القاموس الموسوعي للتداولية، ص ص 265– 266.

[2]– ينظر : حافظ إسماعيل علوي : التداوليات علم استعمال اللغة، ص 45.

–الاستلزام العرفي: وهو قائم على العرف اللغوي عند أصحاب اللغة « من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينهالا تنفكّ عنها مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب ».[1] ومثاله: لفظة (لكن) التي تستلزم دائمًا أن يكون ما بعدها مخالفًا لتوقّع السّامع.

–الاستلزام الحواري: فهو متغير دائمًا بتغير السياقات التي يردُ فيها الخطاب.[2] ومثاله حين يُقال مثلاً: (كم الساعة) فإنّ مقصد المخاطب يختلف بحسب السياق الذي يجري فيه الخطاب، فقد يكون سؤالاً متضمّنًا معنى التوبيخ أو الاستنكار...إلخ.

4 – خصائص الاستلزام الحواري:

للاستلزام الحواري عند "غرايس" خواصّ تُميّزه، نوجزها فيما يلي من عناصر:[3]

–الاستلزام قابل للإلغاء: ويحصل ذلك إذا عمد المتكلم إلى إضافة ما من شأنه أن يسُدَّ الطريق أمام المخاطب وهو يستعدُّ للدخول في عملية التأويل حتى يقف على المعاني الخفيّة.

–الاستلزام لا يقبل الانفصال عن المحتوى الدلالي: فهو مرتبط بالمعنى الدلالي لما يُقال، لا بالصّيغة اللغوية التي قِيل بها، وبالتالي فهو لا ينقطع مع استبدال مفردات بأخرى ترادفها.

–الاستلزام متغير: فيمكن للاستلزام الواحد أن يؤدّي إلى استلزامات مختلفة بتغيّر السياقات.

–إمكانية تقدير الاستلزام: ذلك أنّ المخاطَب يقوم بخطوات محسوبة يتّجه بها خطوةً خطوة وصولاً إلى ما يستلزمه الخطاب من معانٍ ضمنية.

نلاحظ أنّ هذه الخصائص تمثّل جملةً من المؤشرات، لتمييز المعنى المستلزم عن المعنى الحرفي.

---

[1]– محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 33.

[2]– ينظر :محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 33.

[3]– ينظر : المرجع ن، ص ص 38– 39.

5- مبدأ التعاون وقواعد المحادثة:

يُقرُّ "غرايس" بأنّ العملية التخاطبية بين المتكلم والمخاطَب، تحكمها مجموعة من القواعد التي تساعد على نجاحها، وذلك عندما لاحظَ بأنّ المتخاطبين عندما يتحاورون، فإنهم يتّبعون عددًا محددًا من القواعد الضّمنية اللّازمة في أثناء التّواصل.

وهذه القواعد قد صاغها "غرايس" في مبدءٍ عام سمّاه"مبدأ التعاون" وفحواه هو : « ليكُن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلّبه سياق الحوار، وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه،أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار ».[1] ومعناه إذن هو أنه ينبغي على طرفي الخطاب، القيام بما يستوجب عليهما خلال الحوار دون نقصٍ أو زيادة، أي بالقدر الذي يتطلّبه الموقف التخاطبي، وبما يتناسب مع الغرض المراد تحقيقه.

ويقوم هذا المبدأ على أربع قواعد أو مسلّمات هي[2]:

1- قاعدة الكمّ: وتتفرع إلى قاعدتين أساسيتين هما:

أ- لتكن الإفادة التي تقدّمها للمخاطَب على قدر حاجته.

ب- لا تجعل إسهامك بالمعلومات يتجاوز الحدّ المطلوب.

2- قاعدة الكيف: وتتطلب من المتكلم أن:

أ-يكون أمينًا صادقًا فيما يقوله.

ب-لا يقول ما لا يستطيع إثباته.

3-قاعدة المناسبة: وهي أن تجعل كلامك مناسبًا للموضوع.

4-قاعدة الصّيغة: وتنُصُّ على الوضوح في الكلام، وذلك بـ:

أ-تجنّب الغموض واللُّبس.

---

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية- ص 96.

[2]- ينظر: مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب، ص ص 33- 34.

ب-تحرّي الإيجاز.

ج-ترتيب الكلام.

فما نلاحظه من محتوى هذه القواعد وما تنصُّ عليه، أنها تهدف إلى تنظيم عملية التخاطب، وتحقيق أغراضها التي نشأت من أجلها.

وعليه، فإن "غرايس" يؤكّد على أنّ احترام هذه القواعد كفيلٌ بجعل المتخاطبين ينجحون في التّبليغ عن مقاصدهم،لكن في مقابل ذلك، يُؤدّي خرقها أو الخروج عن إحداها إلى اختلال العملية الحوارية، وفي هذه الحالة يتمُّ الانتقال في الخطاب، من المعنى الظاهر إلى المعنى الخفيّ، الذي يستلزمه المقام، وهذا ما عالجه "غرايس" تحت مفهوم "الاستلزام الحواري" أو "التخاطبي".

وما نفهمه أيضا من هذا الكلام، هو العلاقة الموجودة بين الاستلزام التخاطبي، وبين خرق هذه القواعد فانتهاكها يتسبّب في إنتاج هذه الدّلالات الاستلزامية أو الضّمنية. ومثال ذلك: [1]

في حوارٍ يدور بين أمٍّ وابنها، تسأله الأم:

أ-هل اغتسلت ووضعت ثيابك في الغسالة؟

فيُجيب:

ب-اغتسلتُ.

لقد تمّ اختراق (قاعدة الكمّ)، لأن الأم سألته عن أمرين، لكن الابن أجاب عن أمرٍ واحدٍ، وسكت عن الثاني وبالتالي جاءت إجابته ناقصة، وأقلّ من القدر المطلوب.

ومنه فإن المعنى المستلزم النّاتج عن خروج المخاطَب عن هذه القاعدة، هو أنّ الأم ستفهم أنه لم يضع ثيابه في الغسالة، وأنّه تفادى الإجابة بنعم حتى لا يُضمّن كلامه شيئًا لم يفعله، وفي الوقت نفسه لم يرغب في مواجهتها بتقاعسه عن وضع ثيابه في الغسالة.

[1]- ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 36.

الفصل الثاني: مقاربة تداوليّة للاستفهام البلاغيّ في سورتيّ هود ويوسف

توطئة:

يخرج الاستفهام عن المعنى الأصلي إلى المعنى البلاغي أو المقامي، حين يمتنع إجراؤه على الأصل، بمعونة قرائن الأحوال ومقامات الكلام التي يردُ فيها[1]، فيتولّدُ عنه معنى آخر يخالف المعنى الأصلي، وهو الذي سمّاهُ التداوليون " معنى المتكلم" أو " المعنى التداولي " أو" المعنى المستلزم".

والاستفهام بعدّه فعلاً كلاميًّا، فإنّ له قوة إنجازية حرفية، من حيث أنه يحمل معنى أوّليًا ظاهريًّا، وقوة إنجازية غير حرفية، من حيث أنه يؤدّي دلالات ضمنية أخرى غير مباشرة، تختلف باختلاف سياق الكلام، ومقاصد المتكلم، فهو كثيرا ما ينحرف عن معناه الحرفي إلى المعنى المستلزم، وبالتالي فإنّ ذلك يعني انتقال الفعل الكلامي، من القوة الإنجازية الحرفية إلى القوة الإنجازية المستلزمة، وهذا الانتقال أو الخروج يتمّ عبر مرحلتين متلازمتين هما:[2]

- المرحلة الأولى: يؤدّي عدم المطابقة المقامية إلى خرق أحد شروط إجراء المعنى الأصلي فيمتنع إجراؤه.

- المرحلة الثانية: يتوّلد عن خرق شرط المعنى الأصلي، امتناع إجرائه معنى آخر يناسب المقام.

وفي هذا الفصل، سنقوم برصد المواضع التي نحى فيها الاستفهام منحى تداولي، في كلّ من سورة " هود " و"يوسف"، من خلال تتبُّع السياقات التي جاءت فيها الآيات الاستفهامية، ومن ثمّ يتمُّ الكشف عن المقاصد الحقيقية للمتكلمين، وهو ما يمثّل الأبعاد التداولية للخطاب، وقبل ذلك سنعرج إلى التعريف بالسورتين الكريمتين، وذكر ما يرتبط بهما من أسباب النزول، والفضائل، والمناسبة بينهما، إضافة إلى أهمّ المحاور والمقاصد التي شملتاها.

---

[1]- ينظر: حافظ إسماعيل علوي :التداوليات –علم استعمال اللغة- ، ص ص 297- 298.

[2]- المرجع نفسه، ص 297.

المبحث الأول: في رحاب السورتين

المطلب الأول: نبذة عن سورة هود

1-التعريف بها:

هي سورة مكّية، وقيل أنّ الآيات الثانية عشرة والسابعة عشرة، والآية مائة وأربعة عشر مدنيّات، ورُدّ على هذا القول بأنّه لا يصحُّ، لأنّ الموضوعات التي تقرّرها هي من صميم الموضوعات المكّية المتعلّقة بالعقيدة، وموقف مُشركي قريش منها، وآثار ذلك على الرسول عبيه الصلاة والسلام، والعصبة المسلمة معه.[1]

2- ترتيبها:

هي السورة الثانية والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور، والحادية عشرة في ترتيب المصحف، تقع في الجزء الثاني عشر، نزلت بعد سورة يونس، وقبل سورة يوسف، وعدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة.[2]

3-تسميتها:

سُمّيت سورة "هود" بهذا الاسم، «لاشتمالها على قصّة النّبي هود عليه السّلام الواردة فيها مع قومه عاد في الآيات{50- 60}».[3] ولتكرار اسم هود فيها خمس مرّات؛ إذ لم يتكرر في غيرها من السّور التي جاء فيها ذكره عليه السلام، وما حُكي عنه فيها أطول ممّا حُكِي في باقي السور، فقد وُصف قوم عاد بأنهم قومه، في قوله تعالى: ﴿ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** ﴾هود -60-، فسُمّيت باسمه تخليدًا لجهوده في الدّعوة إلى توحيد الله تعالى، كما وقد أسهبت الآيات الخاصة بقوم عادٍ أكثر من غيرها، فسُميت باسم رسولهم لشدّة تجبّرهم وطغيانهم.[4]

---

[1]- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 32، 1423هـ/2003 م، ص 1839.

[2]-أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، ج11، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط1، 1365هـ/1946م ، ص 167.

[3]- وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، مج6، ج12، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط10، 1430هـ/ 2009م، ص 311.

[4]-منيرة محمد ناصر الدوسري: أسماء سور القرآن وفضائلها، تق: فهد الرومي، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ/2005م، ص 225.

4-أسباب نزولها:

نزلت سورة هود بعد سورة يونس كما ذُكر سابقًا، ويونس قد أتت بعد سورة الإسراء، وهذا يشير إلى ملامح الفترة التي نزلت فيها؛ إذ اتّسمت بالشدّة، وكانت من أشقّ الفترات في تاريخ الدعوة بمكّة، فقد سبقها موت"أبي طالب" و"خديجة" رضي الله عنهما، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحزن ما أصابه، فقد كانت له "خديجة" وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وكان له عمُّه بمثابة الدّعم والسّند. وتبع ذلك ازدياد الاستهزاء من قبل المشركين بالرسول عليه الصلاة والسلام، خاصّة بعد حادثة الإسراء، ضف إلى ذلك ارتداد بعض من كانوا قد أعلنوا إسلامهم، فنزلت هذه السورة الكريمة لتثبيت النّبي ومن معه على الحقّ والتخفيف والتّسرية عنه ممّا خالج نفسه من الوحشة والضّيق.[1]« فكانت الآيات تتنزّل عليه وهي تقُصُّ عليه ما حدث لإخوانه الرّسل من أنواع الابتلاء، ليتأسّى بهم في الصّبر والثّبات».[2]

5-فضلها:[3]

ممّا يُروى في فضل هذه السّورة، أنّ "عبد الله بن عمرو" رضي الله عنهما، قال:" أتى رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال اقرأ ثلاثًا من ذوات آلر..". وسورة هود من بين السّور التي تُفتتح بـ(آلر). وعن "ابن عباس"رضي الله عنهما، قال:"قال أبو بكر رضي الله عنه:يا رسول الله قد شبت.قال شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون و إذا الشمس كوّرت."

ولما سُئل النّبي صلى الله عليه وسلم عمّا شيّبَه منها، قال:قوله تعالى:{فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ}هود-112-.

ومن فضائلها كذلك، ما أسندهُ "أبو محمد الدّارمي" في مسنده عن"كعب" قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة." وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم:"من قرأ سورة هود، أُعطي من الأجر عشر حسنات...".

---

[1]- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ص 1840.

[2]- محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج2،دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان،ط4، 1402هـ/1981م،ص 5.

[3]- ينظر: منيرة محمد ناصر الدوسري: أسماء سور القرآن وفضائلها، ص 226. و وهبة الزحيلي: التفسير المنير، مج6،ج12،ص 312.

6- مناسبتها لما قبلها:

بين سورة هود وسورة يونس، تشابُهٌ كبير في مواضع كثيرة، فهي مناسبة لها في فاتحتها وخاتمتها، ومتفقة معها في معناها وموضوعها، فقد أُفتتحتا بذكر القرآن بعد(آلر) وذكر رسالة النّبي المبلّغ عن ربّه، وبيان أنّ وظيفة الرّسول هي التّبشير والإنذار، وفي أثنائهما ذُكِر التّحدي بالقرآن والردّ على الذين زعموا أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم قد افتراه ومحاججة المشركين في أُصول الدّين.[1].

ومن ثمّ، فقد خُتِمتا بخطاب النّاس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أمره في سورة يونس بالصّبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين، وفي سورة هود بانتظار هذا الحكم منه تعالى، مع الاستقامة على عبادته والتّوكل عليه.[2]

وقد فُصّل في هود ما أُجمِل في يونس، من قصص الرّسل عليهم السلام، حيث بسطت القول في قصة "نوح" عليه السلام، التي جاءت مختصرة ومجملة في السورة الأولى، يقول "المراغي" في "تفسيره":« وعلى الجملة فقد أُجمل في كلّ منهما ما فُصّل في الأخرى مع فوائد انفردت بها كلّ منهما فقد اتفقتا موضوعا في الأكثر واختلفتا نظمًا وأسلوبًا...».[3] فقد فصلت سورة هود ما أُجمل في يونس أيضًا من أمور «الاعتقاد من إثبات الوحي والتوحيد والبعث والمعاد والثواب والعقاب والحساب، وإعجاز القرآن وإحكام آياته...».[4]

وبين ختام سورة يونس ومطلع سورة هود، ارتباطٌ شديد، فقد خُتمت الأولى « بالحثّ على اتّباع الكتاب ولزومه، والصّبر على ما يتعقب ذلك من مرائر الضّير المؤدية إلى مفاوز الخير».[5] يقول الله تعالى: ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ يونس-109-.وافتُتحت الثانية ببيان هذا الكتاب ووصفه، والتّحذير من الشّرك، يقول عزّ وجل: ﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾ هود-2/1.

---

[1]- ينظر: أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، ج11، ص 167.

[2]-المرجع نفسه، ص نفسها.

[3]- المرجع ن، ص ن.

[4]- وهبة الزحيلي: النفسير المنير، مج6، ج12، ص 312.

[5]- برهان الدّين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور، ج9، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، 1395هـ/1975م، ص 224.

7- محاور السورة ومقاصدها:

تستعرض سورة هود، حركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كلّه، من عهد "نوح" عليه السلام إلى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وتقرير أن هذه العقيدة قائمة على حقائق أساسية واحدة هي الدينونة لله وحده بلا شريك، والعبودية له وحده بلا منازع، وأن الحياة الدنيا دارُ ابتلاء، والجزاء يكون في الآخرة وأن حرية الاختيار المعطاة للبشر هي مناط هذا الابتلاء.[1]

فقد ابتدأت أوّلًا بتمجيد القرآن الكريم، الذي أُحكمت آياته، ثم عرضت لعناصر العقيدة الإسلامية (التوحيد والرسالة والبعث) عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين فريق الإيمان وفريق الكُفر، والفرق الهائل بينهما، ثمّ تحدّثت عن جملة من الرّسل السّابقين مبتدئة بقصّة "نوح" عليه السلام، أب البشر الثاني، ومن أكثر الأنبياء ابتلاءً، وفصّلت في حادث الطوفان ونجاة المؤمنين وحدهم ، ثم ذكرت قصة "هود" عليه السلام، و تلتها قصة النّبي "صالح" ثم قصة "لوط" ثم قصة "شعيب" و"موسى" و"هارون"، صلوات الله عليهم جميعًا، ثم جاء التّعقيب المباشر بما احتوته هذه القصص من العبر والعظات في إهلاك الله تعالى للظّالمين، قبل أن تُختم ببيان الحكمة من ذكرها، وكان ذلك للاِعتبار بما حدث للمكذّبين من الأقوام السالفة من جهة، ولتثبيت قلب النّبي محمد صلى الله عليه وسلم أمام تلك الشّدائد والمصائب من جهة أخرى.[2]

وفيما يلي إيجازٌ لأهمّ مقاصدها:[3]

-الدعوة إلى توحيد الله بألوهيّته، وهو عبادته وحده ولا أحد سواه، وبربوبيّته، وهو الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق المدبّر لهذا الكون، والمتصرّف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنّتِه.

-إثبات أنّ القرآن من عند الله، من طريق إحكام آياته ونظمها نظمًا رصينًا محكمًا، ثم تفصيلها دون تراخٍ.

-إثبات البعث والجزاء، للإيمان بهما وللترّغيب والترّهيب.

-اختبار البشر لمعرفة أيُّهم أحسنُ عملاً.

---

[1]- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ص 1841.

[2]- ينظر: محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص ص 5- 6.

[3]-وهبة الزحيلي: التفسير المنير، مج6، ج12، ص ص 313، 316.

-الموازنة بين طبع المؤمن والكافر في أحوال الشدّة والّرخاء.

- بيان طبائع البشر المختلفة.

-الأمر بالِاستقامة في الدّين.

- محاربة الفساد في الأرض من أجل حفظ الأمة من الهلاك.

المطلب الثاني: نبذة عن سورة يوسف

1-التعريف بها:

هي سورة مكّية، وقيل أنّ الآيات الثلاث الأولى مع الآية السابعة مدنيّات، ورُدَّ عليه بأنّه قولٌ لا يصحّ ولا يظهر له وجه، و لا يُلتفت إليه، لأنه لا دليل عليه، فهي « كلّها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحًا في موضوعها وفي جوّها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها ».[1]

وهي بالرغم من كونها من السور المكية، «التي تحمل في الغالب طابع الإنذار والتهديد، إلا أنّها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طريّة نديّة، في أسلوب ممتع لطيف، سلسٍ رقيق، يحمل جو الأنس والرحمة، والرأفة والحنان ».[2]ولهذا فقد جاءت متميزة عن باقي السّور المكية بتلك الموسيقى الدّاخلية التي تعبق بها، والتي أعجز جرسها أهل البلاغة والبيان، من أهل مكّة، فأذهلتهم وحملتهم على الِاستجابة لسحرها.[3]

وهي إحدى السور التي تناولت واحدةً من أحسن القصص القرآني، وهي قصّة "يوسف" عليه السلام كُلُّها.

2- ترتيبها وعدد آياتها:

هي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السّور على قول الجمهور، والثانية عشرة في ترتيب المصحف، تقع في الجزء الثاني عشر، نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحجر وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية.[4]

---

[1]- سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ص 1950.

[2]- محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص 39.

[3]- ينظر: محمد علي أبو حمدة: في التذوق الجمالي لسورة يوسف، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1406هـ/1985م، ص 21.

[4] - أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، ج12، ص 111.

3- تسميتها:

الإسم الوحيد لهذه السورة هو "يوسف"، نسبةً إلى النّبي "يوسف" عليه السلام، وعُرفت به منذ زمن الرّسول صلى الله عليه وسلم، والصّحابة الكرام.[1]ووجه تسميتها ظاهرٌ، «لأنّها ذكرت قصّة يوسف عليه السلام كلّها ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلّا في سورة الأنعام...وسورة غافر...».[2]

4- أسباب نزولها:

ممّا يُروى عن أسباب نزولها، ما ورد في مختلف كتب التفاسير، فقيل أنّه في الوقت الذي كان يُعاني فيه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، الوحشة والغربة، والانقطاع في جاهلية قريش، كان الله سبحانه وتعالى ينزّل عليه هذه السورة تخفيفًا لألامه، بذكر قصص المرسلين والعبر منها، فكأنه كان يقول له، أُنظر إلى أخيك "يوسف" وتمعّن في أنواع البلايا التي أصابته، وكيف قاده صبره إلى النّصر وحلاوة الفرج، وهكذا نزلت لتحمل البِشر والأنس، والطمأنينة لمن اهتدى بدروسها وعبرها، وسار على درب في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**﴾ يوسف-7-، سائلين عن قصة يوسف، لذلك كانوا يروون عدّة أخبار و روايات، من ذلك:[3]

-أنّ اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحدِّثهم بأمر النّبي الأنبياء، وكانت إيذانًا بالفرج بعد الضّيق والشدّة.[4]

وقد كان رواة أسباب النزول يميلون إلى كون السّائلين

"يعقوب" عليه السلام وولده، وما انتهى إليه أمرهما. فنزلت هذه السورة تروي القصة.

-وفي رواية أخرى، أنّ كُفّار مكّة أمَرتهم اليهود أن يسألوه صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي أحلّ ببني إسرائيل بمصر وانتقالهم من الشّام، فلمّا سألوه نزلت.

---

[1]- ينظر: منيرة محمد ناصر الدوسري: أسماء سور القرآن وفضائلها، ص 228.

[2]- المرجع نفسه، ص ص 229- 230.

[3]- أحمد نوفل: سورة يوسف-دراسة تحليلية- دار الفرقان، عمان،ا لأردن، ط1، 1409هـ/1989م، ص ص 25- 26.

[4]- سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 1949. ومحمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج 2، ص ص 39- 40.

-وقيل أنّ الصّحابة طلبوا من الرّسول أن يقُصّ عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ** ﴾ يوسف-3-.

5 – فضلها:

ممّا ذُكر في فضل سورة يوسف، «ما يُروى عن عبد الله بن عمرو أنّه قال: (أتى رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: اِقرأ ثلاثًا من ذوات آلر...).وهذه السورة مفتتحة بآلر».[1]

وقولهم فيها أنّه لا يسمع سورة يوسف محزونٌ، إلّا واستراح إليها، وما روي عن "ابن عباس" أنّ طائفةً من اليهود حين سمعوه صلى الله عليه وسلم يتلو هذه السّورة، أسلموا لموافقتها ما عندهم.

6- مناسبتها لما قبلها:

المناسبة بينها وبين سورة هود، أنّها جاءت متممة لما فيها من قصص الرّسل عليهم السّلام وإثبات في كلّ منهما على أنّها وحيٌ من الله تعالى، فلمّا «خلّل سبحانه تلك(سورة هود) بما خلّلها به من القصص والآيات القاطعة بأنّ القرآن من عنده وبإذنه نزل، وأنّه لا يؤمن إلاّ من شاء إيمانه ...وبيَّن عظيم قدرته على مثل ما عذّب به الأمم...وأشار إلى أنه حَكَمَ بالنّصرة لعابديه...تلاها بهذه السورة(سورة يوسف) لبيان هذه الأغراض بهذه القصّة العظيمة...».[2]

وبين ختام سورة هود ومطلع سورة يوسف، ارتباطٌ خفيّ، فالله تعالى لما أخبر في آخر سورة هود بتمام علمه وشمول قدرته، ﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾. هود-123-، دلَّ ذلك في أوّل سورة يوسف، من أنه تعالى قادرٌ على أن يأتي بما تذهب الأفهام والعقول، على مرّ الأزمان وتعاقب الدّهور، ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾.يوسف-1-.[3]

---

[1]- منيرة محمد الدوسري: أسماء سور القرآن وفضائلها، ص 230.

[2]- برهان الدين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور، ج10، ص ص 1-2.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص 3.

لما وُصِف الكتاب في فاتحة سورة هود بأنّه مُحكم، وُصِف في يوسف بأخصّ من ذلك، فقال تعالى: {المبين} أيّ البيّن في نفسه أنّه جامع مُعجز، والموضّح لجميع ما حواهُ.[1]

كما وتظهر الصّلة بينهما، في التدليل في كلّ منهما على رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم، وذلك بآيتين متشابهتين ففي هود، قال تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ هود-49-، وفي أواخر يوسف، قوله:﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾يوسف-102-[2]. ففي ذلك بيان لعدم معرفة النّبي للقصّة قبل نزول الوحي، وحجّة على المشركين المشكّكين في صدق نبوّته ورسالته.

7- محاور السورة ومقاصدها:

وُصِفت قصّة "يوسف" عليه السلام، بأنّها أحسن القصص، فقد «ذكر الله أقاصيص الكثير من الأنبياء في القرآن، وكرّرها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكرّرها، فلم يقدر مخالفٌ على معارضة ما تكرّر ولا على مُعارضة غير المتكرّر، والإعجاز لمن تأمّل».[3]

فهي إذن لم تُكرّر في موضع آخر كسائر قصص الرّسل، وإنّما ذُكِرت أحداثها هنا متتابعة فكانت أطول قصّة في القرآن الكريم، تحكي قصة"يوسف" عليه السلام بجميع فصولها الشيّقة، وفيما يلي عرضٌ موجز للمشاهد التي تضمّنتها:[4]

-"يوسف" عليه السلام يقُصُّ رؤياه على أبيه "يعقوب" عليه السلام (الآيات 4- 7).

-بيان مكانته عند أبيه وتآمر إخوته عليه لقتله أو إبعاده، وإقناع أبيهم بإرساله معهم (الآيات 8-14).

-تنفيد مؤامرتهم عليه، وإلقاؤه في البئر، والكذب على أبيهم بشأن ذلك (الآيات 15-18).

---

[1]- برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والدرر، ص 5.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 5.

[3]- أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج11، تح: عبد الله بن عبد المحسن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م، ص 240.

[4]- أحمد نوفل: سورة يوسف-دراسة تحليلية- ، ص 29.

-التقاط "يوسف" عليه السلام من قبل إحدى القوافل، وخروجه من البئر سالمًا، وبيعه لعزيز مصر (الآيات19-20).

-"يوسف" عليه السلام في قصر العزيز، ومأساة جديدة تلوح في الأفق، دافعها الإغراء وسببها العفّة (الآيات 21-34).

-زجُّه بالسجن ظلمًا، وبروز مرحلة جديدة من حياته؛ إذ كشف الله عن بصيرته وعلّمه تفسير الرّؤى والأحلام (الآيات 35-53).

-تفسيره لرؤيا الملك، وخروجه من السجن، وتولّيه خزائن مصر (الآيات 54-57).

ويتلو ذلك مشاهد عدّة، تنتهي بلقائه بإخوته وانتقال أهله جميعًا مع أبيهم إلى مصر، ومن ثمّ اجتماع النّبي "يعقوب" عليه السلام بابنه بعد فراقٍ أليم، وينتهي ذلك بقدوم الفرج، وشُكر "يوسف" ربّه على نعمه كلّها، بعد صدق رؤياه التي رآها في طفولته.

ويمكن استخلاص عبر وعظات كثيرة، من هذه القصّة العجيبة، منها:[1]

-قد تؤدّي النّقمة إلى نعمة، فقد أُلقي بيوسف عليه السلام أوّل الأمر في البئر، وبِيع بثمنٍ بخسٍ وكانت محنته الكبيرة مع نسوة مصر، فزُجَّ به في غياهب السجون سنينًا، وآل الأمر به في النهاية إلى أن يصبح عزيز مصر.

-النّشأة الصالحة لـ "يوسف" عليه السلام في بيت النّبوّة، وتشرّبه للأخلاق الفاضلة، أفاده في الأحداث الكبيرة التي واجهته، وبها انتصر على المحن، وفرّج الله عنه بعد كربٍ شديد.

-العفّة والأمانة، مصدرُ الخير كلّه، سواءً للرجال أو النّساء معًا.

-الحقّ وإن أُستتر، لا بدّ من أن يظهر ولو طال الزّمن.

-الإيمان بالمبدأ، والترّفع عن الدّنايا، هو ما جعل لـ"يوسف" نفسًا كريمة، وروحًا طاهرة.

-الاعتصام بالله عند الشدّة، واللّجوء إليه في كلّ أمر، هو سبيل الفلاح.

[1]- وهبة الزحيلي: التفسير المنير، مج6، ج12، ص ص 523-524.

المبحث الثاني: الأبعاد التداولية للآيات الاستفهامية في السورتين

إذا نظرنا إلى الاستفهام بعدّه فعلاً كلاميّا، قوّته الإنجازية الحرفية هي: طلب المتكلم أن يحصل في ذهنه أمرٌ غير حاصل وقت الطلب، فإنه يكون فعلا إنجازياً مباشرًا، يتمثّل في طلب الفهم والإفهام، يدلُّ عليه ظاهر التركيب والقرائن اللفظية، ولكن في حال ما لم تخضع العبارة الاستفهامية لهذا الشرط، ولم تكن هناك مطابقة مقامية، لم تدُلَّ وقتها على الاستفهام المحض، وإنّما تفيد وتؤدّي أغراضًا أخرى تداولية، تُفهم بمعيّة القرائن والأحوال والسياقات، نروم فيما تبقّى من أجزاء البحث إلى تحليل كلّ ما ورد منها في الآيات الكريمة، التي جاءت بطريق الاستفهام، في سورتي "هود" و"يوسف" اللّتان تقدّم بيانهما في المبحث السابق، مصنّفين هذه الأغراض، بحسب المعنى الأكثر ورودًا وتكرارًا.

1_ الإنكار:

❖ قال الله تعالى: ﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**﴾ [هود، الآية: 73].

أ – سياق الآية:

هذا الخطاب موجّه إلى "سارة" زوجة "إبراهيم" عليه السلام، على لسان الملائكة، وذلك بعد أن جاءتها البشرى بأنها ستُرزق بولدٍ، وقد كانت عجوزًا وزوجها شيخٌ هرم، فما كان لها إلا أن تُبدي تعجّبها من هذا الأمر، وكان ذلك في قولها (يا ويلتي أألد وأنا عجوز...) هود-72-، فنزلت هذه الآية لتُبيّن لها أنّه لا يُعجز الله شيء وأنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وأنه تعالى أتاها من فضله بأن مَنَّ عليها بولدٍ، وهي وزوجها على هذه الحال وذلك « لحكمة يريدها وهي هنا رحمتهُ بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه ».[1]

ب – بنية الفعل الكلامي وغرضه الإنجازي:

يُلاحظ أن الاستفهام في هذه الآية، قد خرج عن معناه الأصلي وهو طلب الفهم، بوصفه فعلاً لغويا غير مباشر تكمن قصديته في الإنكار المتضمّن معنى النفي، وكذلك يخالطه نوعٌ من التوبيخ، ذلك أن المتكلم وهم

[1]- سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 1912.

(الملائكة) يُنكر على المخاطب تعجّبه من هذا الأمر، كونه صادرٌ من عند الله تعالى، وتقدير القول : « لا تعجبي من أمر الله، فإن الله إذا أراد شيئًا كان ».[1] وفيه أيضًا توبيخٌ لها على ردّة فعلها هذه، فكأنّ الملائكة أرادت أن تقول : كان من الأولى لك أن تسبّحي لله وتمجّدينه مكان التعجب[2]. وقد أشاروا إلى ذلك في قولهم (رحمة اله وبركاته عليكم أهل البيت)، « تعليلاً لإنكار تعجّبها، لأن الإنكار في قوة النفي، فصار المعنى لا عجب من أمر الله لأن إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة ».[3] ولأنها أيضا « كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات (...) فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوّة ».[4] وبالتالي فإن المتكلم قد استعمل تقنية الاستفهام بعدّه إحدى الوسائل التداولية غير المباشرة؛ إذ تستلزم قصدًا غير ما يدلّ عليه الخطاب بمعناه الحرفي وفق ما تقتضيه مقاصد صاحبه، وهو هنا في مقام الإنكار، ومعلومٌ أن هذا النوع من الملفوظات يقتضي توجيه « الإنكار إلى فعل واقع يريد المرسل بيان أنه ما كان ينبغي أن يقع، فيقبّح فاعله أو يوبّخه أو يتهكّم عليه، أو غيرها من الدلالات التي يكشف عنها السياق واعتبار طرفي الخطاب ».[5]فأراد المتكلم توبيخ المتلقي وقد تحقق له ذلك من خلال هذا الفعل الكلامي المركّب منه:

---

[1]– عمر ابن عادل الدمشقي الحنبلي: اللّباب في علوم الكتاب، ج10، ص 528.

[2]– ينظر: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ/ 2009م، ص 491.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1404هـ/ 1984م، ج12، ص 122.

[4]– الزمخشري: الكشاف، ص 491.

الكشاف، ص 491.

[5]– فوز نزّال: الحوار في القرآن الكريم – دراسة وظيفية أسلوبية –، دار هرّة الحق للنشر، عمان، الأردن، ط1، 1424هـ/2003م، ص 103.

(**أتعجبين من أمر الله...**) :

– **فعل القول:** وهو اللفظ الاستفهامي (أتعجبين)، ودلالته معجميّة نحوية صرفة، تشكّلت من همزة الاستفهام والفعل المضارع(تعجب)، فقوته الإنجازية مباشرة ويبقى غير كافٍ لإدراك أبعاد هذا القول.

–**الفعل المتضمّن في القول:** وهو المعنى المنجز بطريق الأسلوب الاستفهامي، ويتمثّل في إنكار المتكلم على المخاطب تعجّبه وتوبيخه على إتيانه.

– **الفعل التأثيري:** وهو الغرض من هذين الفعلين، حيث يكون المتكلم قد حقّق فعلاً ثالثًا هو إرشاد المخاطب، فالملائكة قد نبّهت "سارة" إلى ما غفلت عنه، وهو أنها من أهل بيت النّبوّة الذين لا تتساوى منزلتهم مع سائر الناس، وأن عليها التراجع عن تعجّبها والقيام بالحمد والتّسبيح مكانه، وفي ذلك بلا شكّ أثرٌ بالغ على المتلقي، نجح الملقي في إحداثه من خلال هذا الفعل اللغوي التداولي التوجيهي.

❖ في قوله تعالى على لسان قوم صالح :﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ [هود، الآية: 62].

أ – سياق الآية:

يتمثّل السياق العامّ الذي تدور فيه هذه الآية، في دعوة النّبي "صالح" عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، بعد أن ذكّرهم بنشأتهم من الأرض، ونشأة جنسهم، وأن الله قد استخلفهم فيها ليعمّروها، فطلب منهم أن يستغفروه ويتوبوا إليه، وهنا كانت خيبتهم الكبرى فيه، وأنهم انتظروا منه كلّ شيء إلا هذا القول، وهكذا يستغرب القوم ممّا لا غرابة فيه، ويستنكرون ما هو واجب وحقّ، ويرتابون في أمره، لا لحجّة ولا لبرهان، ولكن لأنّ آبائهم كانوا يعبدون هذه الآلهة.[1]

[1]– ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 1907.

ب – يمكن توضيح بنية الفعل الكلامي التوجيهي، كما يلي:

(**أتنهانا**...) :
- **فعل كلامي مباشر** هو الاستفهام الحقيقي، وهو المعنى الصريح الذي تعبّر عنه القوة الإنجازية الحرفية ويستدلّ عليه بالأداة الاستفهامية الهمزة (أ) + الفعل (أتنهانا).
- **فعل كلامي غير مباشر** هو الاستنكار الصّادر عن المتكلمين (ثمود)، وهو المعنى الضّمني الذي تعبّر عنه القوة الإنجازية المستلزمة.

فالفعل الكلامي المباشر (أتنهانا) يحمل معنًا أوليا ظاهرًا هو الاستفهام حسب ما تُشير إليه القوة الإنجازية الحرفية لبنية الجملة، إلا أنّنا إذا تأمّلنا السياق العام الذي وردت فيه الآية الكريمة، نجده لا يوحي بإنجاز معنًا كنهه هو الاستفهام، وإنّما بغرض إنجاز معنى آخر هو الإنكار، ذلك أن السؤال هنا ليس استفهامًا عن مجهول ولا طلبا للفهم، بقدر ما هو إنكار لفعل النهي عن العبادة، فالملفوظ الاستفهامي جاء على سبيل الإنكار من طرف المشركين وهم ثمود قوم "صالح" عليه السلام؛ إذ عابوا عليه فعله، وكأنهم يقولون له : « يا صالح، قد كنّا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت، أو كنّا نأمل أن تكون سيّدًا أو مستشارًا في الأمور، لِما نرى لك من رجاحةٍ في العقل، وسدادً في التفكير، فالآن خيّبت الآمال وقطعت الرّجاء ».[1] فالنّبي "صالح" قد سقط من أعينهم، حين نهاهم عن عبادة ما قد أَلِفَه عليهم من عبادةٍ لآلهة آبائهم، ودعاهم في مقابل ذلك إلى عبادة الله وحده، ويؤكد بدوره الإمام "الشوكاني" على هذا المعنى الخفيّ الذي خرج إليه الاستفهام، في تفسيره للآية، قائلاً : « والاستفهام في قوله (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) للإنكار، أنكروا عليه هذا النّهي ».[2]

ومنه، فإنّ الجملة الاستفهامية قد انتقلت من القوّة الإنجازيّة الحرفيّة، التي هي طلب الفهم، إلى القوة الإنجازية المستلزمة، وذلك بخرقها لأهمّ شرطٍ يؤدّي إلى انحراف دلالتها الأصلية، وهو شرط جهل المتكلم بالمستفهَم عنه لتنجز بذلك فعلاً آخر بطريقة غير مباشرة، استدعى دلالة أخرى تداولية هي الإنكار، والمستمدّة من عناصر السياق والقرائن المحيطة بالفعل الإنجازي، والمتمثلة في:

[1]– وهبة الزحيلي: التفسير المنير، مج 6، ج 12، ص 417.

[2]– محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير، تح: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ/ 2007م، ص 663.

– السياق العام للآية: أداء النّبي "صالح" عليه السلام لرسالته، ومحاولة تبليغ الدعوة المشتركة بين جميع الرسل والأنبياء، ألا وهي عبادة الله وحده لا شريك له.

– المتكلم: قوم ثمود المشركين.

– المخَاطب: النبي صالح عليه السلام.

– موضوع الخطاب: استنكار القوم لدعوة نبيّهم إلى عبادة الله عز وجل، ونهيه إيّاهم عن عبادة آلهتهم التي كان يعبدها آباؤهم.

– السياق اللساني: العناصر اللّفظية المكوّنة للبنية السطحية للجملة الاستفهامية.

– أحوال المتخاطبين: حالة الكُفر التي كان عليها قوم ثمود، في مقابل حالة الإيمان التي يمثّلها النّبي "صالح" عليه السلام.

– العلاقة بين المتخاطبين: ثمّة معرفة مشتركة بين المتكلم و المخاطب، فصالح واحدٌ من القوم، تجمعه بهم آصرة القربى العامة بين أفراد القبيلة الواحدة، (وإلى ثمود أخاهم صالحًا)[1]. وذلك «في النّسب لا في الدّين »[2].

– الموضوعات المتصلة بالكلام: توحيد الله، ترك عبدة الأوثان.

– أثر الكلام على المشاركين فيه: انفعال قوم "صالح" عليه السلام، ورفضهم لما جاءهم به.

2– الإنكار والنفي :

❖ في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [هود، الآية: 18].

[1]– سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 1896.

[2]– الحسين بن مسعود البغوي : تفسير البغوي –معالم التنزيل– ، مج 4، تح: محمد عبد الله النصر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، السعودية، دط، 1411هـ/1990م، ص 185.

أ– سياق الآية:

قيل في سبب نزولها، أنّه لما «تعالى عناد الكافرين من أهل مكة، وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واتهامهم له بافتراء القرآن، ذكر هنا قصّة نوح مع قومه الكافرين لتكون كالعظة والعبرة لمن كذّب وعاند...»[1]. حيث يمضي سياق الآية يواجه الذين يزعمون أن القرآن مفترى من دون الله، ويكذبون على الله سبحانه وعلى رسوله الكريم، وذلك في مشهد من مشاهد القيامة، يُعرض فيه الذين يفترون الكذب على الله، سواء بقولهم إن الله لم ينزّل هذا الكتاب، أو بادّعائهم شركاء له...[2].

ب– تحليل بنية الفعل الكلامي غير المباشر:

(**ومن أظلم..**) :

– **فعل كلامي مباشر** هو الاستفهام الحقيقي، وهو المعنى الظاهر، الذي تعبّر عنه القوة الإنجازية الحرفية، ويُستدلّ عليه بالأداة الاستفهامية (من) التي يُطلب بها تعيين العاقل + صيغة المبالغة (أظلمُ).

– **فعل كلامي غير مباشر** يفيد معنيان: الإنكار، أي إنكار أن يكون هناك أحدٌ أكثر ظلمًا ممّن يفتري على الله الكذب، والنفي : أي نفي أن يكون هناك من هو أظلم من هؤلاء المفترين، والتقدير : لا أحد أظلم منهم.

يدُلُّ لفظ (من أظلم) على معنى الاستفهام، الذي يُستشفُّ من خلال النظر إلى البنية السطحية التي يتشكّل منها، لكنّ التّأمل في سياق الآية يُشير إلى أنّ الأسلوب الاستفهامي هنا، لا يمثّل فعلاً كلاميا مباشرا، أي طلب الإجابة عن هذا الاستفسار، وذلك لانعدام التطابق بين ظاهر التركيب وباطنه، وبالتالي انحرف الاستفهام عن معناه المباشر الذي تقتضيه ألفاظ التركيب، إلى معانٍ بلاغية أخرى يؤدّيها الفعل الإنجازي، والمتمثلة في الإنكار والنفي، كون المتكلم لا يستفهم عن وجود من هو أظلم ممن افترى على الله الكذب، بل ينفيه وينكر أن يكون أحد أظلم منه، ويؤكّد الإمام "الشوكاني" هذه المقاصد في معرض تفسيره للآية بقوله :« واللّفظُ وإن كان لا يقتضي إلا نفي المُساوي لهم في الظلم، فضلا عن أن يوجد من هو أظلم منهم ».[3]

---

[1]– محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص 12.

[2]– ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ص 1866.

[3]– الشوكاني: فتح القدير، ص 652.

❖ قال الله تعال:﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود، الآية: 24].

أ – سياق الآية :

في الآية الكريمة، وصفٌ لفريقين اثنين، فريقُ الكفر الذي لا يُبصر الحقّ فيتبعه ويعمل به، لأنه منشغلٌ بكفره، وغلبة خذلان الله عليه، لا يسمع داعي الله إلى الرشاد والهدى فيجيبه ويهتدي إليه، فهو مقيم في ضلالته كمثل الأعمى الذي لا يرى شيئًا والأصمّ الذي لا يسمع شيئًا، وأمّا الفريق الثاني، فهو فريق الإيمان، الذي أبصر حجج الله وآياته في الكون، وأقرَّ بما دلّت عليه من توحيد الله، والبراءة من الآلهة، وسلّم نفسه لطاعة الأنبياء، والاقتداء بما جاؤوا به، وسمع داعي الله فأجابه، فهما أبدًا لا يستويان عند الله [1].

ب –إنجازية الفعل الكلامي:

الظّاهر أنّ القوّة الإنجازية الحرفية للتّركيب، غير مطابقة لما يقصده المتكلم، فواضحٌ من خلال المقام الذي أُنجز فيه الخطاب، أنّ الغرض من الاستفهام الوارد فيه (هل يستويان) هو ما تقتضيه دلالته الخفيّة، وهو الإنكار والنفي، ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى يُنكر أن يتساوى فريق الكُفر عنده مع فريق الإيمان، وشبّههما بالأعمى والأصمّ في مقابل البصير والسميع، لذلك يصفُ " سيد قطب " هذا الاستفهام قائلاً أنّه « سؤالٌ بعد الصورة المجسّمة لا يحتاج إلى إجابة لأنها إجابة مقررة ».[2] فحالُ الفريقين المذكورين، كحال الضّدين المختلفين، فالكفار مع كونهم يرون ويسمعون، إلاّ أنّ قلوبهم عُميت عن رؤية الحقّ، وصُمّت آذانهم عن إجابة نداء الإيمان، فلم يستجيبوا لذلك، وصاروا بمنزلة الفاقد لهما، في حين انقاد المؤمنون لِمَا رأوا من دلائل تدلّ على وحدانية الله، واتّعظوا بما سمعوه من توجيهات، فكانت حواسّهم مرتبطة بالقلب قبل الجسد، ويؤكّد " محمد سيد طنطاوي " على خروج الفعل الكلامي إلى معنى آخر تداولي، يُفهم من سياق الكلام ومقاصد المستفهم، حين يقول : « والاستفهام في قوله (هل يستويان مثلا) للإنكار والنفي، أي هل يستوي في الصفة والحال من كان ذا سمعٍ وبصرٍ بمن فقدهما ؟ كلاّ إنهما لا يستويان حتى عند أقلّ العقلاء عقلاً ».[3] وبالتالي فإنّ إنجازية الفعل تكمن في «

---

[1]– ينظر: الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج4، تح : بشار عواد معروف، عصام فارس الحرشاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/ 1994م، ص 269.

[2]– سيد قطب : في ظلال القرآن، مج1، ص 1868.

[3]– محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج7، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1412هـ/ 1996م، ص 187.

نفي استواء حالهما ».[1] وأمّا الفعل التأثيري المنبثق عن الفعل الإنجازي، فهو تنبيه المخاطَب لما هو فيه من الضّلال لعلّه يرجع عن خطئه، ويتدارك الأمر.

ومنه أمكن القول، أنّ الفعل اللغوي المباشر " الاستفهام" قد نحى منحًا تداوليا باستدعائه ما يُعرف ب "معنى المتكلم"، من خلال مخالفة بنيته العميقة لبنيته السطحية، ومراعاةً للمعنى الذي يستلزمه المقام، كما هو موضّحٌ أدناه :

(هل يستويان مثلا) :

- **فعل القول**: قوته الإنجازية الحرفية هي الاستفهام، ومؤشر هذه القوة: هل الاستفهامية لطلب التصديق + الفعل المضارع (يستوي).
- **الفعل الإنجازي**: قوته الإنجازية غير حرفية، وغرضه الإنكار والنفي، وهي معانٍ تداولية استلزمها المقام ومقاصد المتكلم.
- **الفعل التأثيري**: دفع المخاطَب إلى التدبّر، وإعادة النّظر في موقفه.

❖ قال الله عزّ وجل على لسان نبيّه "نوح" عليه السلام: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾ [هود، الآية: 28].

أ – سياق الآية:

يوجّه "نوح" عليه السلام هذا القول إلى قومه المشركين، بعد أن دعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وأن يؤمنوا به ويطيعوا أمره كونه نبيٌّ من عنده عزّ وجل، وأنه قد أُرسل لكي ينذرهم بالعذاب إن هم ظلّوا على كفرهم، لكن القوم عصوا أمره، وقالوا له ما نرى لك ولأتباعك من مزيّة وشرف علينا يؤهّلكم للنّبوّة، وأنّ الذين اتبعوك ما هم إلا أراذل القوم منّا، لذلك نرجّح الحكم عليك وعليهم بالكذب فيما تدّعونه [2]، وقد بادر هؤلاء الكفّار إلى هذا القول من غير تمعّنٍ وتفكير في صحة ما جاء به، فيسلُك "نوح" مسلكًا آخر لإبطال حجّتهم هذه، ويخبرهم

[1]– ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص 43.

[2]– ينظر: المراغي : تفسير المراغي، ج12، ص 25.

أنهم « أنهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمل على التصديق برسالته، فكذلك هو لا يستطيع أن يحملهم على رؤية المعاني الدالّة على صدقه ولا يستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدي الذي جاء به ».[1]

ب –إنجازية الفعل الكلامي:

لقد تقدّم لدينا، أنّ الأسلوب الاستفهامي يُؤتى به بغرضِ طلب الفهم، حتى يحصل للمستفهم ما هو جاهلٌ له لكنه قد يضطرّ إلى استخدامه، لتحقيق أغراضٍ أخرى، كونه يعدُّ من أكثر الآليات التداولية التوجيهية، قدرةً على الإقناع والتأثير في نفس متلقّيه، كما نرى في هذا الخطاب، فقد صاغ "نوح" عليه السلام استفهامه ليُنكر على قومه طغيانهم وعنادهم اتجاه دعوته إلى التوحيد والإيمان، فيكون تقدير قوله (أنلزمكموها) هو : « أنكرهكم على قبولها ونُجبركم على الاهتداء بها والحال أنكم كارهون منكرون لها ؟ ».[2] فالاستفهام « للإنكار والنفي ».[3] أي : « كلاّ إنّا لا نفعل ذلك، بل نكلُ أمركم إلى الله حتى يقضي في أمركم ما يرى ويشاء وما عليّ إلا البلاغ ».[4] وعليه تكون القوة الإنجازية غير المباشرة للفعل الكلامي مخالفة لما يضمره ظاهر اللفظ، الذي يحمل قوة إنجازية حرفية مؤشّرها الهمزة الاستفهامية، والفعل المضارع (نلزِمُ) و(كاف المخاطبة)، و أمّا الذي أدّى إلى هذا الانحراف أو العدول عن الدلالة الأصلية فهو طبيعة المقام الذي أُنجز فيه الخطاب، إضافة إلى مقاصد المتكلم، فقد تطلّبا خروج الاستفهام إلى إنجاز هذه المعاني؛ إذ بعد أن رأى "نوح " تعنُّت القوم وإصرارهم على الكفر، وصدّهم لهذه الدعوة، أنكر عليهم موقفهم، ونفى أن يلجأ إلى إجبارهم على قبولها، فلا إكراه في الدّين، وأما الغرض التأثيري لهذا الفعل اللغوي المباشر الذي نحا منحى تداولي، فيتمثّل في تنبيه المخاطَب إلى السوء الذي هو عليه، ومحاولة جعله يرى الخطأ الذي يُصرّ على القول به فيرجع إلى نفسه، ويخجل ويرتدع [5]. والدالّ على حقيقة ذلك ما يمتزج بهذا الإنكار من مشاعر الحرص على هدايتهم، وتخويفهم من سوء المصير الذي ينتظرهم.

وعليه يكون البعد التداولي قد تحقق لهذا الفعل الكلامي، على النحو التالي :

---

[1]– ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج12، ص 50.

[2]– محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير : ج2، ص 13.

[3]– محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 193.

[4]– المراغي : تفسير المراغي، ج12، ص 27.

[5]– ينظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز : ص 119.

(**أنلزمكموها...**) :
- **فعل القول**: دلالته الصريحة هي الاستفهام.
- **الفعل الإنجازي**: قوته إنجازية غير حرفية متضمّنة في القول، وهي الإنكار والنفي.
- **الفعل التأثيري**: تنبيه المخاطَب وحمله على مراجعة نفسه، وردعه عن خطئه.

❖ يقول الله عزّ وجل على لسان "يعقوب" عليه السلام : ﴿**قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف، الآية: 64].

أ – سياق الآية :

هذا القول جزءٌ من الحوار القائم بين النبي "يعقوب" عليه السلام وأبناؤه، الذين يطلبون منه إرسال أخيهم الأصغر معهم، حتى ينالوا الكيل، متعهّدين إيّاه بحفظه وحمايته، لكن "يعقوب" يستنكر عليهم ذلك، ولسان حاله يقول:« كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، بعد أن ضمنتم لي حفظه ثم خنتم العهد (...) فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله ».[1]

ب – تحليل الفعل الكلامي الذي جاء في صورة الاستفهام:

(**هل آمنكم عليه...**) :
- **فعل كلامي مباشر**: هو الاستفهام المحض، وهو المعنى الصريح الذي يؤدّيه ظاهر اللفظ وقوته الإنجازية الحرفية تتمثل في الأداة (هل) + الفعل (آمنَ).
- **فعل كلامي غير مباشر** يفيد معنيان : الإنكار، وهو إنكار المتكلم لهذا الطلب، إضافة إلى النفي، وتقديره : ما / لا آمنكم.

يدُلُّ لفظ (هل آمنكم) على معنى الاستفهام، كما تعبّر عنه البنية السطحية للفعل الكلامي، لكن السياق يتدخّل بقوة ليكشف لنا عن نفسية المتكلم الحزينة والمدمَّرة، فهو ليس في مقام التساؤل والبحث عن الإجابة، وإنما يأتي الاستفهام في هذا الموضع بدلالات متداخلة هي الاستنكار والنّفي والاستغراب، من مجرّد التفكير في طلب الائتمان مرة ثانية، فكيف بالتصريح به، فهو يستنكر على أولاده هذا الطلب، لأنهم قد ذكروا هذا الكلام مع

[1]– محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص 58.

يوسف في زمن مضى، وضمنوا له حفظه، ثم كان ما كان من خيانةٍ للعهد واختلاقٍ للقصص، يقول "الرازي" في هذا الشأن : « والمعنى أنّكم ذكرتم قبل هذا الكلام في يوسف وضمنتم لي حفظه، حيث قلتم : (وإنّا له لحافظون) –يوسف 12– ثمّ هاهنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه، فهل يكون هاهنا أمانيٌّ إلاّ ما كان هناك، يعني لما لم يحصُلِ الأمان هناك، فكذلك لا يحصل هاهنا ».[1] ومن ثمّ يكون المتكلم قد نجح في إيصال مقاصده من خلال هذا الاستفهام الإنكاري المتضمّن معنى النفي، والذي نراهُ أدقّ في تبليغ الفكرة للمتلقي، وأشدّ تأثيرًا في نفسه، من لو أنّ العبارة جاءت بمعنى النفي مباشرةً، فالسرّ في هذا النوع من الأساليب أنّه « يتطلّب جوابًا يحتاج إلى تفكير (...) ولما كان المسؤول يُجيب بعد تفكيرٍ ورويّة عن هذه الأسئلة بالنفي، كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداءً ».[2]

3– الإنكار والتوبيخ :

❖ في قوله تعالى : ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ**﴾[هود، الآية: 35].

أ – سياق الآية :

وردت هذه الآية في شأن النبي "نوح" عليه السلام مع مُشركي القوم، حين قالوا له بأنّ ما أُوحي إليه مفترى، فردّ عليهم " نوح " « بهذا الجواب المفحم (إن افتريته فعليّ إجرامي) أي إن كنت على سبيل الفرض والتقدير قد اختلقت هذا الوحي كما زعمتم فليس عليكم شيء في اختلاقي، وإنّما يكون الذّنب العظيم الذي يعذّبني الله به إن ارتكبته عليّ أنا ».[3]وبأنه بريءٌ من كفرهم بالله، وتكذيبهم لدعوته ورسالته.

---

[1]– محمد الرازي فخر الدين : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج18، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1420هـ/1990م، ص 479.

[2]– أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1426هـ/2005م، ص 126.

[3]– محمد الأمين الشنقيطي : معارج الصعود إلى تفسير سورة هود، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ط1، 1408هـ/ 1988م ، ص 107.

ب –إنجازية الفعل الكلامي :

نفهم من سياق الآية الكريمة، أنّ المتكلم ليس في مقام السؤال، وإنّما ساق كلامه مساق الإنكار المتضمّن معنى التوبيخ؛ إذ ينكر الله سبحانه وتعالى على قوم " نوح " قولهم إنّ ما أُوحي إليه مُفترى أي مُختلق فهو كاذبٌ ومُدّعٍ قاصدًا توبيخهم على جهلهم وعنادهم الذي أودى بهم إلى قول هذا، ومن ثمّ يأمره بالقول (إن افتريته فعليّ إجرامي) والمعنى : « أي إجرامي عليّ لا عليكم فلماذا تُكثرون ادّعاء الافتراء كأنّكم ستؤاخذون بتبعتهِ، وهذا جارٍ على طريقة الاستدراج لهم ».[1] وقد أراد به إقامة الحجّة عليهم، وذلك باستدراجهم إلى التّخلي عن التفكير في هذا الأمر، وكأنه يقول إن كان ما أدعوكم إليه كذبٌ فأنا من سيُعاقب لا أنتم، وبالتالي لا ضير عليكم إن اتبعتم هذه الدّعوة وقبلتموها، إن كان هذا ما يمنعكم عنها، فالاستفهام هنا « للتوبيخ والإنكار ».[2] ويؤكد " ابن عاشور " هذه الأغراض بقوله شارحًا : « فالاستفهام الذي يؤذن به حرف (أم) المختصّ بعطف الاستفهام، استفهامٌ إنكاري، وموقع الإنكار بديعٌ لتضمّنه الحجّة عليهم ».[3] ومنه فإنّ المتكلم قد نجح في تحقيق هذه الأغراض من خلال هذا الفعل الكلامي المباشر الذي نحى منحى تداولي، وأنجز معانٍ أخرى ضمنية يستلزمها السياق وقرائنه، وذلك بطريق الاستفهام، بعدّه أقوى وأبلغ الآليات التداولية في الإقناع وإبطال حجج المخاطب وأعذاره الواهية، وتظهر إنجازية الفعل اللغوي وغرضه التأثيري فيما يأتي :

(أم يقولون افتراه...) :

– فعل القول : ما تمثّله البنية السطحية للعبارة الاستفهامية من دلالة معجمية صرفية نحوية تفيد الاستفهام المحض معزولة عن مقام الخطاب.

– الفعل المتضمّن في القول : وهي المعاني المضمرة في الخطاب، غير مصرّح بها بظاهر الملفوظ وإنّما يستلزمها السياق ومقاصد المتكلم، وتتمثّل في كلّ من الإنكار والتوبيخ.

– الفعل التأثيري : يتمثّل في آثار الفعل المتضمن في القول، أي في مجموع الأغراض المنجزة ذات القوة الإنجازية غير الحرفية، وهي هنا استدراج المخاطب، وتفنيد زعمه، وإبطال حججه.

---

[1]– ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج 12، ص 64.

[2]– محمد الأمين الشنقيطي : المرجع السابق ، ص ن.

[3]– ابن عاشور : المرجع السابق، ص ن.

❖ في قوله تعالى على لسان "هود"عليه السلام :﴿**يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [هود، الآية: 51].

أ – سياق الآية :

يوجّه " هود" عليه السلام خطابه هذا، إلى قومه "عاد" المشركين، داعٍ إيّاهم إلى التوحيد كما هو حال كلّ الأنبياء والرّسل، ومنكرًا عليهم اتّخادهم آلهة غير الله سبحانه وتعالى، ثمّ يخبرهم أنّه « لا يريد مالاً ولا سلطانًا أو جاهًا يكون أجرًا على دعوته ».[1]وأنّ ثوابه ما هو إلاّ على الله الذي جعله على الفطرة السليمة المستقيمة، ثم « يدعوهم إلى التدبّر (...)لأنه غير معقول في ذاته؛ إذ كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضرّ، وهو حجر لا ينطق ولا يعقل ».[2] ويتولّون عن عبادة وتوحيد الله الواحد الأحد الذي خلقهم وسوّاهم ودبّر أمورهم بحكمته وإرادته.

ب –إنجازية الفعل الكلامي :

خرج الاستفهام كما في الآية السابقة عن دلالته الأصلية، وذلك أنّ المقام مقامُ إنكارٍ وتوبيخ، والمتكلم ليس في انتظار أي جوابٍ، وإنّما ساق كلامه مساق أغراضٍ أخرى، غير ما يوحي به ظاهر التركيب للعبارة الاستفهامية لذلك فإنّ القوة الإنجازية للفعل الكلامي المباشر قد نحت منحى تداولي، بدلالتها على هذين المعنيين المستلزمين بقرينة المقام، فقد انحرف مؤشر هذه القوة عن دلالة الوضع، وصارت « الهمزة في قوله (أفلا تعقلون) للاستفهام الإنكاري ».[3] عن عدم تعقُّلهم وتأمّلهم في دلالة حاله على صدقه فيما يبلّغه لهم، ويوبّخهم على عدم تدبّرهم في حقائق الأشياء، وتقدير الكلام :« أتجهلون ما هو واضحٌ من الأمور، فلا تعقلون أنّ أجر الناصحين المخلصين، إنّما هو من الله تعالى ربّ العالمين ورازقهم ».[4] وقد أراد المتكلم بذلك تفنيد ما قد يُخيّل إليهم من أنّه دعاهم إلى ما دعاهم إليه، لا لشيء سوى لابتغاءه الأجر منهم.

---

[1]– محمد أبو زهرة: زهرة التفاسير، ج 7، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1422هـ/ 2001م، ص 3876.

[2]– المرجع نفسه، ص نفسها.

[3]– محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 222.

[4]– المرجع نفسه، ص ن.

❖ في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[يوسف، الآية: 109].

أ – سياق الآية :

في الآية الكريمة، بيانٌ إلى سُنّة الله في رسالاته، وإشارةٌ إلى مصائر الأمم الغابرة، وأنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم، لم يكن بدعًا من الرّسل، وإنّما سبقه بهذه الدّعوة أنبياء سابقون، وكانت عواقب الذين كذّبوا من قبل آيات معروضة في الأرض للتّدبّر، وتثبت الآية أن من أُرسلوا قبل النبي عليه الصلاة والسلام، كلّهم كانوا رجالاً يُوحى إليهم، وليسوا ملائكةً ولا خلقًا آخر، وإنّما كانوا بشرًا من أهل القرى، والقرى هي المدن العظيمة، وفي بيان هذا أمور من بينها أنّ الرسول يكون من أهل هذه المدن، ويكون من قومه، على علمٍ بأحوال النّاس، معروفًا بينهم من غير غطرسة قبل النّبوة، فتكون شهادة له بالصّدق بعدها، ثمّ تنذر الآية مشركي العرب بالمصير الذي ينتظرهم إذا استمرّوا على كفرهم وطغيانهم ولم يتدبّروا سُنن الله في الغابرين، وتدعوهم إلى استعمال عقولهم، فيتّقوا الشّرك ويتّقوا غضب الله وعذابه [1].

ب – بنية الفعل الكلامي وغرضه الإنجازي :

الظّاهر من خلال سياق الآية وما تحمله من إشارات ومعانٍ، أنّ الاستفهام الوارد فيها لا يمثّل فعلاً كلاميًّا مباشرًا، لعدم المطابقة التّامة بين ما تقتضيه قوّته الإنجازية الحرفية، وغرضه الإنجازي، وذلك إذا علمنا أنّ المقام مقامُ إنكارٍ متضمّن معنى التّوبيخ، وإنّما ساق المتكلم هذه المعاني بصيغة الأسلوب الاستفهامي، لما له من أثرٍ بالغ في نفس المتلقي، فالله سبحانه وتعالى يُنكر على مشركي مكة عدم اتّعاظهم « بما أصاب الجاحدين من قبلهم من عذابٍ دمّرهم تدميرا، وهؤلاء الجاحدين الذين دُمّروا مازالت آثار بعضهم باقية وظاهرة في الأرض ».[2] ولكنهم رغم ذلك لم يستشعروا هول الأمر، وظلّوا على نكرانهم وتعنُّتهم، لذلك جاءت « الهمزة للاستفهام الإنكاري الباعث على إعمال العقل وتدبّر مآلهم (...) ».[3] وهو متضمّن لمعنى التّوبيخ، وتقدير الكلام: كيف لم يحملكم ما

[1]– ينظر: سيد قطب : في ظلال القرآن، مج 1، ص 2035. و محمد أبو زهرة: زهرة التفاسير، مج 7، ص 3875.

[2]– محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 424.

[3]– محمد أبو زهرة : المرجع السابق، ص نفسها.

خاطبناكم به أيُّها المشركون على التّعقّل والتّدبّر، فتدخلوا في الإيمان، وتنبذوا الكفر والطّغيان [1]. وبهذا يكون الغرض الإنجازي لهذا الفعل الكلامي هو الحثُّ على التّعقّل والتّدبّر والاعتبار والموعظة، وقد تحقّقت هذه المعاني التداولية بمعيّة المقام وقرائنه.

4– الإنكار والتوبيخ والتّعجّب :

❖ يقول الله عزّ وجل على لسان "شعيب" عليه السلام : ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾[هود، الآية: 92].

أ – سياق الآية :

بعد أن أمر "شعيب" عليه السلام قومه بعبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان، والكفّ عن التطفيف في الميزان، وإيفاء الناس حقوقهم، انتقل إلى نوعٍ آخر من التّذكير، وهو تنبيههم إلى ما آلت إليه الأمم السابقة وما نالها من الهلاك، لعلّهم يتوبون، لكن الفساد كان قد بلغ منهم مبلغه، فكان ردّهم عليه بأنهم لا يفقهون كثيرًا من كلامه، وأنهم يرونه ضعيفا ولولا عشيرته الأقربون –وقد كانوا على ملتهم– لَرَجَمُوه، مشيرين إلى أنه ليس ممّن يعزُّ عليهم، وإذ ذاك أخذت "شعيب" الغيرة على جلال ربّه، فقال لهم (أرهطي أعزّ عليكم من الله) منكرًا عليهم موقفهم، فكيف يكون قومهم أعزّ عليهم من ربهم، وكيف يُعرضون عنه وهم من خَلقِه، منذرًا إيّاهم بالعذاب الذي ينتظرهم فالله بما يعملون لمحيطٌ [2].

ب – بنية الفعل الكلامي وبُعده التداولي :

نلاحظُ أنّ الفعل الكلامي الذي تُعبّر عنه البنية الظاهرية للخطاب، يُفيد معنى التساؤل وهذا إذا نظرنا إليه بمعزلٍ عن السياق، والظروف المحيطة بالمتخاطبين، فإذا علمنا أن المتكلم هنا لا ينوي السؤال، وإنّما ساق استفهامه مساق الإنكار، متضمّنًا معنى التوبيخ والتعجب، أمكن القول أن الفعل الكلامي ذو القوة الإنجازية الحرفية قد نتج عنه فعل كلامي آخر غير مباشر، اقتضته مقاصد المتكلم من هذا الخطاب، وذلك أنّ "شعيبًا" ينكر على قومه

[1]– ينظر : محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 424.

[2]– ينظر : سيد قطب : في ظلال القرآن، مج 1، ص 1922. والطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج4، ص 305.

هذا الموقف الذي اتخذوه منه ومن دعوته، ومتعجّبًا من إصرارهم وعنادهم في كلّ مرّة، وموبّخًا إيّاهم على سفالتهم، ولسان حاله يقول : « أعزَّزتُم قومكم، فكانوا أعزّ عليكم من الله واستخفَفتُم بربّكم، فجعلتموه وراء ظهوركم، لا تأتمرون لأمره، ولا تخافون عقابه ».[1] وبالتالي فإن الاستفهام في قوله، فيه قوة إنجازية مستلزمة يُراد بها الإنكار فقد « استنكر ذلك عليهم، وتعجّب منه، وألزمهم ما لا مخلَص لهم عنه، ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفي هذا من قوة المحاجّة، ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى ».[2] وذلك لأنّ الاستفهام واحدٌ من الآليات التداولية الأكثر تأثيرا على متلقي الخطاب، فقد استطاع المتكلم جعل المخاطب يفهم بأنّه محلّ تهديدٍ وعقاب، وذلك من خلال الإشارة إلى علم الله بكلّ ما يفعلون، والتّلميح إلى العذاب المنتظر، وكلّ ذلك مصوغٌ من خلال الفعل الكلامي غير المباشر المستلزم لهذه المعاني، بمعيّة السياق وظروف المتخاطبين، ونوع العلاقة التي بينهم.

ويمكن رسم بنية الفعل الكلامي، وكيف حصل غرضه الإنجازي كالآتي:

(أرهطي أعزّ عليكم...) :

- الفعل الكلامي المباشر: (أرهطي) قوّته الإنجازية حرفية تفيد الاستفهام الحقيقي، مُدرَكة مقاليا من خلال القرينة اللغوية المتمثلة في الهمزة الاستفهامية يليها المستفهَم عنه (الرّهطُ).
- الفعل الكلامي غير المباشر: قوته إنجازية مستلزمة هي الإنكار يخالجه التوبيخ والتعجب، وهي معانٍ تداولية لم يدلّ عليها ظاهر الخطاب، وإنّما ترتّبت عن عدم مطابقة القوة الإنجازية الحرفية لما يريده المتكلم ويقصده.

5– الإنكار والتوبيخ والتهديد :

❖ يقول الله عزّ وجل :﴿**أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[يوسف،الآية: 107].

[1]– الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج 4، ص 305.

[2]– الشوكاني : فتح القدير، ص 671.

أ – سياق الآية :

تذكرُ كتب التفسير، أنّه لما طلب كفّار قريش وجماعة من اليهود، هذه القصة (قصة يوسف) من رسول الله صلى الله عليه وسلم، على سبيل التّعنُّت، وظنّ الرسول أنه رواها ربّما آمنوا، فلمّا فعل لم يجد منهم إلا الإصرار على الكفر والمكابرة فنزلت هذه الآية[1]. « وهي لمسةٌ قويّة لمشاعرهم، لإيقاظهم من غفلتهم (...)فإن عذاب الله الذي لا يعلم موعده أحد، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلُفُّهم وتشملهم (...)وهم لا يشعرون (...) فكيف يأمن الغافلون ».[2]

ب – الفعل الكلامي وبعده التداولي :

(أفأمنوا...) : – الفعل الكلامي المباشر هو الاستفهام، ويمثّل المعنى الحرفي للملفوظ، وقد تحقق بواسطة الهمزة الاستفهامية يليها الفعل الماضي (أَمِنَ).

– الفعل الكلامي غير المباشر ويتضمّن معانٍ ضمنيّة هي الإنكار والتوبيخ والتهديد، وهي التي يؤدّي إليها السياق وقرائنه، فهي تُدرك مقاميا لا مقاليًا.

المقام هنا مقامُ إنكارٍ وتوبيخ، فالله سبحانه وتعالى أنكَرَ الموقف الذي اتّخذه الكفار اتجاه الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك بتعنّتهم ومواصلتهم في العناد، كما ويحمل الخطاب الاستفهامي معنى التوبيخ، وبهذا يكون الفعل الكلامي المباشر قد تضمّن معانٍ أخرى مستلزمة للمعنى الأولي مدركةٌ مقاميًا، ويؤكّد "الصابوني" ذلك بقوله : « والاستفهام إنكاري وفيه معنى التوبيخ ».[3] وأضاف "أبو حيان الأندلسي" معنى التهديد : « (أفأمنوا) استفهام إنكار، فيه توبيخٌ وتهديد ».[4] وبالتالي فإنّ المتكلم لمّا صاغ قوله بطريق الاستفهام، قد عمد إلى تضمينه فعلاً إنجازيًا آخر، أدّى مجموع هذه الدلالات، ونجح في تحقيق الفعل التأثيري وهو هنا جعل المخاطَب يتنبّه ويعيد التفكير، ويدفعه إلى تدبّر العواقب، وحينما يُلقى الكلام بصيغة الاستفهام الإنكاري يكون له وقعٌ أشدُّ في نفس المتلقي من لو أنه صاغ كلامه بطريقة مباشرة ومعانٍ صريحة كأن يقول (أنكر عليك...).

---

[1]– ينظر : محمد الرّازي فخر الدّين : التفسير الكبير، ج18، ص 227.

[2]– سيد قطب : في ظلال القرآن، مج 1، ص ص 2033– 2034.

[3]– محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ،مج 2، ص 70.

[4]–محمد بن يوسف أبي حيّان الأندلسي : تفسير البحر المحيط، ج 5، تح : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ/ 1993م ، ص 345.

6- الإنكار والتعجيب :

❖ يقول الله تعالى على لسان إخوة "يوسف" عليه السلام: ﴿**أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [يوسف، الآية 11].

أ – سياق الآية :

لمّا كان إخوة "يوسف " يرون حُبَّ أبيهم الشديد له، ازدادت الغيرة في قلوبهم، وأعماهم الحسد حتى قرّروا أن الحل الوحيد لكي يحظوا بمحبّة أبيهم هو أن يتخلّصوا من هذا الأخ الذي ملَكَ قلب الأب، وقد كانوا من قبل يسألوه أن يتركه يخرج معهم للّعب، لكنه كان يُعارض هذا الأمر خوفًا عليه من أن يمسّه سوءٌ من عندهم أو من سواهم، فما إن عقدوا العزم على الخلاص منه، حتى جاؤوه مرة أخرى يطالبونه بالسماح له بالخروج، عارضين عليه ذلك بشيئ من الرّجاء، ومُخبرين إيّاه بأنّهم لا يريدون له سوى الخير والنُّصح، وأنهم سيحفظونه كما يحفظون أنفسهم، وكان أن نزل "يعقوب" هذه المرة عند طلبهم، مستودعًا إيّاهم أمانة أخيهم، ثمّ كان ما كان من بقيّة القصّة.

ب – الفعل الكلامي المباشر وبعده التداولي :

من خلال سياق الآية الكريمة، علمنا أنّ المتكلم في محاولةٍ لاستجداءِ المخاطَب لعلّه يحقّق له طلبه، وقد طبّقَ ذلك باستعمال الأسلوب الاستفهامي (مالك لا تأمنّا) مُريدًا به غير دلالته الأصلية، وإنّما إنكارًا منه لسلوك المخاطَب معه، فالإخوة ينكرون على أبيهم عدم ائتمانه "يوسف" عليهم، فكأنهم أرادوا القول : « أي شيء جعلك لا تأمنّا على أخينا يوسف في خروجه معنا، والحال أننا له ناصحون فهو أخونا ونحن لا نريد له إلاّ الخير الخالص، والودّ الصّادق ».[1] وهذا ما يؤكّده " ابن عاشور " في تخريجه للآية، حيث يقول : « وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الا ئتمان ».[2] وهم فوق ذلك، أرادوا أن يُبيّنوا له تعجُّبهم من رفضه هذا، ولسان حالهم يقول إنّك أنت أبونا، ونحن كُلُّنا أبناؤك وهو أخونا، فكيف لا يأمنُ الأبُ أبناءه على ابنه، وهو واحدٌ منهم، وما يُعزّز ذلك قولهم (يا أبانا) فقد « خاطبوهُ بذلك تحريكًا لسلسلة النّسب بينه وبينهم وتذكيرًا لرابطة

---

[1]- محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 326.

[2]- ابن عاشور . التحرير والتنوير، ج13، ص 227.

الأخوّة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ».[1] وعليه يكون الاستفهام في قولهم (مالك لا تأمنّا) « للتّعجيب من عدم ائتمانهم عليه مع أنّهم إخوته، وهو يوحي بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنها جميعا باءت بالفشل ».[2] وبالتالي نجد أنّ القوّة الإنجازية غير الحرفية للتّركيب الاستفهامي، تُخالف المعنى الصريح للعبارة، وقد ساهم في نجاح الفعل الكلاميّ، كل من السياق العامّ للآية ومجموع الافتراضات المسبقة التي تقتضي أنّ الإخوة لم يقوموا بهذا الطّلب للمرّة الأولى، وإنّما كانت لهم محاولات من قبل قُوبِلت كلها بالرفض وهذا ما يُعلّل استنكارهم لموقف أبيهم، وقد نتج عن إنجاز هذا الفعل الكلامي فعلٌ تأثيري يكمن في إقناع المخاطَب ومحاولة جعله يعدلُ عن رأيه، فنحن نلمس نوعًا من الرّجاء والالتماس في كلام الإخوة، « ليتسبّبُوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحسّ منهم بأمارات الحسد ».[3] وعليه يكون البعد التداولي للفعل الكلامي غير المباشر كما يلي :

(مالك لا تأمنّا...) :

- فعل القول : دلالته الصريحة هي الاستفهام الحقيقي، تدلّ عليه البنية السطحية للعبارة.
- الفعل الإنجازي : وهو الإنكار والتعجب، معانٍ استلزمها السياق والافتراضات المسبقة المشتركة بين طرفي الخطاب.
- الفعل التأثيري : وهو الأثر اللّاحق بالمخاطَب، تمثّل في إقناعه واستنزاله عن رأيه، وقبول هذا الطّلب.

7- الإنكار و التنبيه على الضلال :

❖ يقول الله تعالى :﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [هود، الآية: 24].

[1]- أبوالسعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ص 257.

[2]- محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 326.

[3]- أبوالسعود: المرجع السابق، ص ن.

أ – سياق الآية :

يذكر الله سبحانه وتعالى حال الكفار والمؤمنين، فيشبّه الفريق الأول «في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانية الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشُبّهوا في عدم الانتفاع بأدلّة القرآن بحال من هو أصمّ ».[1] وشبّه الفريق الثاني بحال من كان سليم البصر والسمع، فهو في هدى ويقين من أمر ربّه، وفي ذلك دعوة للنّاس إلى التدبّر في هذه الحقيقة البيّنة، والرجوع عن الضلال واتّباع طريق الحق والرّشاد.

ب – تداولية الفعل الكلامي المباشر :

لقد جاء الفعل الكلامي المباشر (أفلا تذكّرون) بصيغة الاستفهام الحقيقي، متضمّنا لمعانٍ أخرى تداولية نستشعرها من خلال المقام الذي جاء فيه الخطاب؛ إذ بعد أن وصف الله عزّ وجل حال الكافرين وجحودهم وعصيانهم وتشبيهه إيّاهم بحال من لا سمع لهُ ولا بصر، وكان المؤمنون على النّقيض من ذلك، أنكر عليهم عدم تذكّرهم بعد ما تحقّق ما يوجب هذا التذكّر، وتقدير الكلام : « أتسمعون هذا فلا تتذكّرون (...) أي أفلا تفعلون التذكّر، أو أفلا تعقلون ».[2] ومعنى هذا مكوثهم على غفلتهم، رغم رؤيتهم لعدم الاستواء التام بين الفريقين، فلم ينظروا إلى ما ضُرب لهم من المثل بعين التّدبّر والتّفكّر [3] لذلك فإنّ مؤشّر القوة الإنجازية للفعل الكلامي (الهمزة) أفادت معنى الاستفهام الإنكاري، وغرضه تنبيه المخاطب عمّا هو عليه من الضلال، و« أنه يمكن زوال هذا العمي، وهذا الصمم المعقول، فيجب على العاقل أن يتذكّر ما هو فيه، ويسعى في هداية نفسه ».[4] ففي قوله (أفلا تذكّرون) دعوةٌ للنّاس إلى الاعتبار فيعرفوا حقيقة هذا الاختلاف بين الفريقين، فينزجروا عمّا هم عليه من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، وبالتالي نرى انتقال الفعل الكلامي من دلالته المباشرة إلى معانٍ أخرى سياقية.

---

[1]– ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج 12، ص 41.

[2]– شهاب الدين السيد محمود الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، ج7، تح : علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/ 1994م، ص 35.

[3]– ينظر : أبو السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج4، ص ص 198– 199.

[4]– أبو حيان الأندلسي : البحر المحيط ، ج 5، ص 214.

8 – التقرير :

❖ يقول الله تعالى : ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [هود، الآية: 13].

أ – سياق الآية :

في هذا الخطاب، أبان الله تعال عن إعجاز القرآن الكريم بدليل تحدّي العرب به، كونهم أهل فصاحة وبيانٍ فقال : (أم يقولون افتراه) أي أن مشركوا مكة يدّعون أنّ محمدًا قد افترى القرآن واختلقه، فتحدّاهم الله بأن يأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات، تُضارعه في الفصاحة والبلاغة، إن كان ما يزعمونه صحيحًا.[1]

ب – تحليل الفعل الكلامي :

(أم يقولون):
- فعل كلامي مباشر : يتمثل في الاستفهام بمعناه الأصلي، الذي تدلُّ عليه البنية السطحية للجملة.
- فعل كلامي غير مباشر : هو التقرير، وهو المعنى المستلزم، الذي يُستشفُّ من القوة الإنجازية غير الحرفية.

يمثّل الاستفهام في هذه الآية فعلاً كلاميا، يخالف غرضه الإنجازي ما يحمله ظاهر التركيب من دلالة مباشرة وبذلك فقد خرج إلى غرضٍ آخر هو التقرير والإثبات، فالأداة (أم) هنا لا يُراد بها تعيين الجواب، فقد جاءت بمعنى (بل)، والتقدير : « (بل يقولون افتراه)، (بل يقولون اختلقه) ».[2] ومنه فإن قصد المتكلم هنا هو تقرير هذه الحقيقة، وهي أن المشركين سيقولون بافتراء "محمد" عليه الصلاة والسلام لهذا القرآن، لذلك عقب هذا العبارة مباشرةً، عبارة أخرى تتضمّن معنى التحدي (قُل فأتوا بعَشْرِ سورٍ مّثله مُفتريات)، فالمستفهم لم ينتظر الجواب، لأنه ليس في مقام الاستجواب، « فالله وحده القادر على أن ينزله، وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على هذا

[1]– ينظر : وهبة الزحيلي : التفسير المنير، مج6، ج12، ص 342.

[2]– البغوي : تفسير البغوي، مج4، ص 165.

النحو ».[1] لذلك فقد تلى هذا التقرير، الذي لا مفرّ من الإقرار به، سؤالٌ لا يحتمل سوى جوابًا واحدًا عند غير المكابرين وهو (فهل أنتم مسلمون) هود – 14-.

❖ يقول الله عزّ وجل موجّها خطابه إلى النّبي "لوط" عليه السلام : ﴿**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**﴾[هود، الآية: 81].

أ – سياق الآية :

ممّا ذُكر في سياق الآية، أنّ قوم لوطٍ جاؤوه يطلبون الفاحشة، ويراودونه عن ضيفه، فقال لهم : هؤلاء يا قوم بناتي (يعني نساء أمّته) فانكحوهُنّ هنّ أطهر لكم، وطلب منهم ألا يُخزوه في ضيفه، فلمّا أَيِسَ من أن يستجيبوا له، ورأت الملائكة شدّة الكرب الذي لحقه بسببهم، وتمنّيه أن يجد قوة تدفعهم عن أضيافه، نزلت هذه الآية، وقالت الملائكة له أن يا لوطُ لا تخف، فهم لن يصلوا إليك ولا لضيفك بمكروهٍ، فإنّا قد جئنا لإهلاكهم، فاخرج من هذه القرى أنت وأهلك ببقيّة من الليل تكفي لتجاوز حدودها، فإن موعد عذابهم هو الصّبح، وهو قريبٌ[2].

ب – بيان البعد التداولي للفعل الإنجازي :

إنّ الفعل الكلامي الوارد بصيغة الاستفهام في هذه الآية، قد خالف معناهُ ظاهر لفظه، ذلك أنّ المتكلم ليس في مقام البحث عن إجابة أو الردّ بنعم أو لا عن هذا السؤال، وإنّما أراد به تحقيق الخبر وإثباته، فهو « استفهامٌ تقريري يحملونه به إلى أن يُقرَّ فيقول : بلى هو قريبٌ ».[3] وذلك أنّ "لوطًا" عليه السلام عندما قالت له الملائكة أن موعد هلاك قومه الفاسقين قد آنَ أوانه : (إنّ موعدهم الصّبح)، استعجل نزول هذا العذاب، فأعادوا القول مقرّرين (أليس الصّبح بقريب) مُثبتين قولهم ومؤكّدين عليه، فهو « استئناف بياني صَدَرَ من الملائكة جوابًا عن سؤالٍ يجيشُ في نفسه من استبطاء العذاب ».[4] وبالتالي فإنّ الفعل الكلامي قد أنجزَ دلالة أخرى بمعيّة المقام وقرائنه لتحقيق قصده الذي يرمي إليه من وراء اعتماد هذه الصيغة، وهو إثبات وتقرير موعد

---

[1]– سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ص 1822.

[2]– ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج 4، ص ص 297– 298.

[3]– محمد الأمين الشنقيطي: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود، ص 197.

[4]– ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص 133.

العذاب، وأمّا أثره على المخاطَب، فهو حمله على الاقتناع والتسليم، إذا علمنا أنّ الاستفهام التقريري « يلامس النفس، ويخالج مشاعرها حتى لا يستطيع المخاطب ردّه، بل ينقاد ويستسلم للحقيقة (...)فهو يتمكّن من النفس الإنسانية، ويلتصق في صميمها، كأنه شيء استقرّ فيها، حتى لا تجد بُدًّا من الاعتراف بالحقيقة المقرّرة، اللهم إلاّ أن تجحد هذه الحقيقة ».[1]وما كان "لوط" عليه السلام من الجاحدين، بدليل أنّ المفسّرين قالوا أنّه لمّا سمع هذا الكلام خرج بأهله في الليل.

ومنه فإنّ المتكلم قد حقّق مقاصده من خلال القوة الإنجازية غير الحرفية التي يحملها الخطاب، والناتج عنها دلالة مستلزمة تلقّاها المخاطَب، ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي :

(**أليس الصبح بقريب...**) :

- **فعل القول** : وهو لفظُ الاستفهام، وله معنًا صريح دلّت عليه البنية السطحية للعبارة من خلال المؤشرات اللغوية (الهمزة + بقية التركيب الاستفهامي).
- **الفعل الإنجازي** : وهو المعنى الملازم لفعل القول بمعيّة المقام وقرائنه، قوّته الإنجازية غير مباشرة تتمثّل في التقرير.
- **الفعل التأثيري** : وهو الأثر المترتّب عن الفعل المتضمّن في القول، والذي يتجسّد فيه الغرض الكلامي بتنبيه المخاطَب إلى الصّواب وإرشاده بعد تقرير الحقيقة عنده.

❖ يقول الله سبحانه وتعالى :﴿**فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنْ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ [يوسف، الآية: 80].

أ – سياق الآية :

لمّا أصرّ " يوسف" عليه السلام على الاحتفاظ بأخيه الأصغر، وذلك بعد أن عَمَدَ إلى دسّ الصّواع في رحله كي يظهره على أنّه لصٌّ، أخذ الإخوة يترجوّنه في أن يطلق سراحه ويأخذ أحدًا آخر منهم مكانه، لكن "يوسف"

[1]– شيباني محمد : الدلالات اللغوية والبلاغية لأسلوب الاستفهام التقريري في القرآن الكريم ودور السياق النصي في تفجيرها، مجلة الباحث، مجلة سنوية، جامعة قاصدي مرباح، ع2، ورقلة، الجزائر، 2003/12/31م، ص ص 3-4.

كان يريد أن يلقّنهم درسًا، وفي خضم كلّ ذلك كان يُعدُّ للمفاجأة التي تنتظرهم جميعًا، فقال : (مَعاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذًا لظالمون) يوسف 79- فكانت هذه كلمته الأخيرة والنّافذة، ويئِسَ الإخوة من محاولة تخليص أخيهم، وأدركوا أنّهم في ورطة كبيرة؛ إذ كيف سيعودون إلى أبيهم وقد أخذ عليهم موثقا من الله بأن يحفظوا أخاهم ولا يعودون إلا وهو معهم، حتى أن واحدا منهم فضّل ألاّ يبرح مصر، ولا يواجه أباه بما حدث، حتى يُحدث الله أمرًا [1].

ب – البعد التداولي للفعل الكلامي:

خرج أسلوب الاستفهام في هذه الآية عن معناه الأصلي، إلى غرضٍ آخر هو التقرير، ذلك أن المتكلم لم يقصد به سؤال إخوته إن كانوا يعلمون بأمر هذا العهد أم لا، ونستدلُّ على ذلك من خلال الخلفيات المشتركة بين هؤلاء المتخاطبين، فهم إخوة ولهم أبٌ واحدٌ، قطعوا أمامه وعدًا بخصوص أخيهم الأصغر، وما يعزّز ذلك أيضًا شدّة الكرب الذي حلّ بهم حال وقوع هذه المحنة، والذي يقتضي أنّ أخاهم المحجوز ذو مكانةٍ خاصّة عند أبيهم، وأنهم قد عاهدوه على حفظه له، فطبقًا لهذه الافتراضات المسبقة، فإنّ المتكلم هاهنا أراد تحقيق هذا العهد وتثبيته، فالاستفهام في قوله : (ألم تعلموا...) « للتقرير. أي : لقد علمتم علمًا يقينًا بعهد أبيكم عليكم بشأن بنيامين، وعلمتم علمًا يقينا بخيانتكم لعهد أبيكم في شأن يوسف، فبأيّ وجهٍ ستعودون إلى أبيكم وليس معكم أخوكم بنيامين ؟ ».[2] وهم لا ينكرون الأمر، لذلك عمد المتكلم إلى تذكيرهم وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من خلال هذا الاستفهام التقريري، الذي تتجلّى معانيه المضمرة على النحو التالي :

(**ألم تعلموا**...):

- **فعل القول**: (ألم تعلموا) وهو فعل كلامي مباشر دلالته الصريحة هي الاستفهام، يدلُّ عليه السياق اللغوي للتركيب.
- **الفعل المتضمن في القول**: التقرير، وتقدير الكلام (ألم تعلموا ؟ (سهم) قد علمتم)، قوته الإنجازيةمستلزمة دلاليًّا من السياق المقامي بما يحتويه من ظروف خارجية وعلاقات وخلفيات مشتركة بين المتخاطبين، يُؤطّر فيها الخطاب.
- **الفعل التأثيري**: هو الغرض الناتج أو الأثر المترتّب عن الفعل الإنجازي التقريري، يتمثّل في تذكير وتنبيه المخاطَب إلى أمرٍ يعلمه وتغافل عنه.

[1]- ينظر : سيد قطب : في ظلال القرآن ،مج 1، ص 2024.

[2]- محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 403.

❖ في قوله تعالى :﴿ **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[يوسف، الآية: 96].

أ – سياق الآية :

تروي الآية الكريمة مشهد مجيء إخوة "يوسف" عليه السلام بالقميص، الذي ردّ البصر لنبيّ الله "يعقوب" بعد أن ابيضّت عيناه من الحزن لفراق ولده، فلمّا فصلت العير قال "يعقوب" بأنّه يجد رائحة "يوسف"، لكنّ المحيطين به لم يكن لهم ما له عند ربّه، ولم يجدوا من ذلك شيئا، فأخدوا يعاتبونه وينكرون عليه إصراره بقولهم (تالله إنّك لفي ضلالك القديم) يوسف-95- ولكنّ المفاجأة البعيدة تقع، وهي مفاجأة القميص، وهو دليلٌ على "يوسف" وقُربِ لُقياه، وتبعتها مفاجأة ارتداد البصر، وهنا يذكر "يعقوب" معاتبًا، حقيقة ما يعلمه من ربّه، تلك التي حدّث أهله بها من قبل فلم يفهموه، « ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ».[1]

ب – تحليل الفعل الكلامي :

(ألم أقل لكم...) :
- المعنى الحرفي هو الاستفهام.
- القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا وسياقيا هي التقرير.

رغم أنّ ظاهر العبارة الاستفهامية، يُوحي بوجود معنى الاستفهام، لاستهلالها بالهمزة الدلة على معناه، غير أن باطن العبارة يحمل دلالة مخالفة عمّا تُعبّر عنه القوة الإنجازية الحرفية للفعل الكلامي، ذلك أن هذا الخطاب الاستفهامي، ليس فيه انتظارٌ للعلم بشيء يجهله "يعقوب"، وإنّما هو محاولة منه لتقرير حقيقةٍ، لم يكن من حوله يصدّقها أو يفهم مغزاها، وهي أن الله سبحانه وتعالى قد منَّ عليه بمعرفة كثيرٍ مما لا يعلمونه ولا يصلون إليه، لذلك فقد ضمَّن استفهامه هذا قدرًا من التوبيخ والعتاب لهم، بسبب أنهم عاندوه ولم يصدّقوه في بداية الأمر، وبالتالي فإن الفعل الكلامي المباشر يخرج إلى تأدية غرضٍ آخر يفرضه المقام وقصد المتكلم، والمتمثّل في الدلالة التقريرية، ومنه يتحقق غرض المتكلم منه وهو حملُ المخاطب على الإقرار والاعتراف بهذه الحقيقة والاقتناع بها، وللإشارة فإنّ

[1]– ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 2028.

هذا القسم من الاستفهام التقريري، هو إنشاءٌ من حيث المبنى، خبرٌ من حيث المعنى، ذلك لأنّ معناه كما تقدّم هو تثبيت الخبر وتحقيقه، فمعنى (ألم أقل لكم) هو (قد قلت لكم).

9–التقرير و الترغيب :

❖ يقول الله عزّ وجل على لسان "يوسف" عليه السلام :﴿ **وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴾ [يوسف، الآية: 59].

أ – سياق الآية :

يُخاطب "يوسف" عليه السلام في هذه الآية إخوته، وذلك حين فَرَغَ من إيفاءهم حقّهم من الكيل، بعد أن استضافهم لديه، وأنزلهم منزلاً طيّبًا، واستطاع استدراجهم حتى ذكروا له منهم على وجه التّفصيل، وأنّ لهم أخًا صغيرًا لم يحضر معهم، لأنّ أباهم يحبّه ولا يُطيق فراقه، فلمّا استعدُّوا للرّحيل، طلب منهم "يوسف" أن يأتوا بأخيهم هذا في المرة القادمة، وإلاّ لن يكون لهم كيلٌ عنده من بعد الآن، مُخبرًا إيّاهم بأنّه خيرُ من يُكرم الضيوفَ، وأنّه سيوفيه نصيبه حين يأتي معهم، وسيلقوا منه الإكرام المعهود [1].

ب – بيان تداولية الفعل الكلامي :

واضحٌ من سياق الآية، أن الاستفهام الوارد فيها لا يُرادُ به إفادة التصديق؛ إذ لا ينتظر المتكلم جوابًا من المخاطَب لجهله به، وإنّما له مآرب أخرى، تتّضحُ لنا إذا علمنا أنّ المقام مقامُ تقريرٍ وترغيب، "فيوسف" عليه السلام لمّا أمرهم بأن يحضروا معهم أخاهم الأصغر، مستعملاً صيغة الأمر (آتوني) وقد علم بينه وبين نفسه مدى صعوبة الموقف الذي وضعهم فيه، عَمَدَ إلى فعلٍ إنجازي آخر غير مباشر هو التقرير، يُخالجه معنى التّرغيب، وذلك للتخفيف من وطأة هذا الطلب، فقوله (ألا ترون أني أُوفي الكيل) معناهُ : « ألا ترون أني أكرمتُ وفادتكم، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام، وأنزلتكم ببلدي منزلا كريمًا (...) ».[2] ولأن ذلك كان واقع الأمر حقًّا، ما كان أمامهم سوى الإقرار بهذه الحقيقة، فقد رأوا من كرمه وضيافته ما أثار عجبهم، فكان من وراء هذا الاستفهام

[1]– ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ص 2015.

[2]– محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 385.

التقريري « تحريضٌ لهم على الإتيان به، وترغيبٌ لهم في ذلك حتى ينشطوا في إحضاره معهم ».[1] فبعد أن اطمأنُّوا إليه أغراهم بالعودة ورغّبَهُم في تحقيق ما أمرهم به، وتظهر استجابتهم لذلك من خلال قولهم (سنُراود عنه أبانا وإنّا لفاعلون) يوسف -61- أي « سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه من يده ونجتهد في ذلك، وفيه تنبيهٌ على عزّة المطلب وصعوبة مناله ».[2] وبالتالي استطاع المتكلم أن يُرفق خطابه الاستفهامي، معانٍ أخرى ضمنية احتواها الفعل الكلامي المباشر، حقَّق من خلاله مقاصده وفق المنحى التالي :

- (**ألا ترون...**) :
  - **– الدلالة الصريحة:** دلالة الفعل الكلامي المباشر على الاستفهام المحض، والمكوّن من الهمزة الاستفهامية + الفعل المضارع (يرى).
  - **– الدلالة الخفيّة:** ساعد في تحقيقها المقام وقرائنه، وهي التقرير والترغيب والتّحريض، معانٍ تداولية أقامها الفعل الإنجازي غير المباشر.
  - **–الغرض التأثيري:** استمالة المخاطب وتحفيزه على فعل ما طُلب منه، إقناعه به.

10– التقرير والنفي :

❖ يقول الله تعالى :﴿ **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [هود، الآية: 17].

أ – سياق الآية :

يُبيّن الله عزّ وجل في هذه الآية حال الرسول " محمد " صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أتباعه، في مقابل حال من يكفر بالله ونبّيه ودعوته، وينفي أن يكون من هو على نورٍ وبصيرة في دينه، ويؤيّده شاهدٌ من ربّه على نبوّته ورسالته، وهو هذا القرآن الذي يشهد بذاته أنه وحيٌ من الله لا يقدر عليه بشرٌ، إضافة إلى شاهدٍ آخر قبله

[1]– محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مج 7، ص 385.

[2]– أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، مج 4، ص 289.

هو كتاب " موسى " المثبِت لصدق النبيّ، سواءً بما تضمّنه من البشارة به، أو بموافقة أصله لما جاء به محمدٌ من بعده، أن يكون بمنزلة واحدة مع من يكفر به، فهؤلاء جزاؤهم النار خالدين فيها، وبعدها يدعو الله سبحانه نبيّه للثّبات وألاّ يكون في شكٍّ من أمر هذا القرآن، وما شكَّ الرسول في ما أُوحي إليه، ولكنه أراد التسرية عنه بهذا التوجيه وذلك لما كان يخالج نفسه من ضيقٍ وتعبٍ ووحشة، واطمأنّه بأن التقصير ليس من عنده، وإنّما أكثر الناس لا يؤمنون لاستكبارهم وعنادهم [1].

ب – الفعل الكلامي المباشر وبعده التداولي :

الظاهر من سياق الكلام، أنّ الاستفهام في قوله (أفمن كان على بينة) قد خرج عن معناه الأولي إلى معنى آخر تداولي، تضمّنه الخطاب، ولم يصرح به المتكلم بطريقة مباشرة وإنّما صاغه بطريق الاستفهام التقريري حتى يُثبت حقيقةً لا مناصّ منها، وهي انتفاء أن يتساوى من كان على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أوحى الله به على نبيه ونزّله في كتابه من الهدي والعلم، مع من كفر بكلّ هذا، ويؤكّد " ابن عاشور " ذلك بقوله : « والهمزة للاستفهام التقريري (...) ونظير هذه الآية قوله تعالى" أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زُيّن له سوء عمله واتّبعوا أهواءهم " في سورة القتال ».[2] وبالتالي فقد خالفت القوة الإنجازية الحرفية للفعل الكلامي المعنى المضمر الذي تلبّسه هذا الفعل جرّاء إيراده في هذا المقام، وطبقًا لما أراده المتكلم من معنى تحقيق القول و تثبيته.

11 – التقرير و الإنكار :

❖ قال الله تعالى على لسان " يوسف " عليه السلام :﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار** ﴾ [يوسف، الآية: 39].

أ – سياق الآية :

هذا الجزء من الحوار، قد دار بين " يوسف " عليه السلام، والرّجُلين اللّذان التقاهما في السجن، حين زجّت به امرأة العزيز ظلمًا، وهو هنا يدعوهما إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وترك ما يعبدونه من الأوثان والآلهة المتفرقة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وذلك بعد أن فسّر لهما الرؤيا التي رآها كلّ واحدٍ منهما، فكان مصير واحدٍ

[1]– ينظر: سيد قطب : في ظلال القرآن، مج 1، ص ص 1864– 1865.

[2]– ابن عاشور: التحرير والتنوير ، ج 12، ص ص 26– 27.

الموت ومصير الآخر الخروج من السجن، والعودة إلى قصر العزيز خادمًا. « ويدخل هذا ضمن حملة التّبشير بالله التي أقامها " يوسف " خلال مكوثه بالسجن، في مقابل الحملة على الشرك والكفر ».[1]

ب – تحليل الفعل الكلامي وغرضه الإنجازي :

ظاهر العبارة يوحي أنّ المتكلم يطلق لفظًا انتظارًا منه للإجابة، وذلك من خلال الصّيغة الاستفهامية الخالصة، والمُشكّلة من الهمزة التي تفيد التصديق أو التصور، وهي هنا في مقام التصور (أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار)، لكنّ المتكلم أراد به أمرًا آخر غير التعيين، فخرج الاستفهام عن مقتضى الظّاهر إلى معانٍ أخرى، تتأتّى من سياق الكلام وهي التقرير، « وحقيقة استفهام التقرير، أنّه استفهام إنكار، والإنكار نفي ».[2] إضافة إلى الإنكار، فهو ينكر عليهما عبادة تلك الآلهة التي صنعوها لأنفسهم، وينفي أن تكون خيرٌ من الله الواحد الأحد ومن ثمّ يقرّر فساد عبادة الأوثان، وفساد تعدّد الأرباب، « فأوردَ يوسف عليه السلام على صاحبيّ السّجن هذه الحجّة القاهرة على طريق الاستفهام، لأنّهما كانا ممّن يعبد الأصنام ».[3] يقول " الرّازي " مُخرجًا دلالة الاستفهام في الآية : « والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار ».[4] وذكر " ابن عاشور " أنّه استفهامُ تقريرٍ [5]، فهذين المعنيين يُشكّلان معًا قوّةً إنجازيّة مستلزمة لم تُشِر إليها البنية السطحية أو الأولّية للفعل الكلامي، وإنّما لازمته طبقًا لمقاصد المتكلم التي يرغب في إيصالها إلى المخاطَب، وهذا ما يُمثّل البعد التداولي للفعل، أنجزهُ المتكلم بمعيّة السياق وقرائنه، وأمّا غرضه التأثيري فقد تمثّلَ في جعل المخاطَب يُعيد النّظر في ماهيّة الشيء الذي يعبُدُه (أأربابٌ متفرّقة)، بعد أن أدخل " يوسف " عليه السلام الشكّ في قلب الرّجُلين، وفعلَ ذلك « في صورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهامٍ ».[6] وذلك أكثر إبلاغًا وأقدر على التأثير، من لو أنّه استعمل صيغة مباشرة للفعل كأن يقول (أربابكم متفرّقة والله الواحد القهّار خير)؛ ذلك أنّه سيُحدث نفورًا في نفس الكافر، ويدفعه إلى الجحود والنّكران والرّفض، وهكذا كان « الوجه في محاجة الجاهل أن

---

[1]– محمد عزة دروزة: التفسير الحديث، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1421هـ/ 2000م، ص 21.

[2]– الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص 333.

[3]– الشوكاني: فتح القدير، ص 696.

[4]– الفخر الرازي: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 18، ص 143.

[5]–ينظر: ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج 12، ص 274.

[6]– أبو حيّان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج 5، ص 309.

يؤخد بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإن قبِلها لزِمتهُ عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحقّ ».[1]

وعليه، فإنّ المتكلم قد أنجز معانٍ تفوقُ ما قاله، وذلك من خلال الفعل الإنجازي غير المباشر، وقوته الإنجازية المستلزمة، وساهم في تحقيق ذلك كلّ جزءٍ من بنية الفعل الكلامي الكامل كما هو موضّح فيما يلي :

(**أأربابٌ متفرّقون خيرٌ...**) ←

– **فعل القول**: (أأربابٌ) صيغته الاستفهام، مؤشّر قوّته الإنجازية الحرفية (الهمزة) + الاسم (أبابٌ).

–**الفعل المتضمّن في القول**: هو الفعل الإنجازي الدالّ على معنى التقرير والإنكار، فالمتكلم ينكر على المخاطَبين عبادتهما للأوثان، ومن ثمّ أراد تقرير هذه الحقيقة وإثباتها.

– **الفعل التأثيري**: لقد نتج عن الفعل الإنجازي غير المباشر أثرٌ واضح على المتلقي، فلجوء المتكلم إلى الاستفهام أعطى المخاطَبين فُسحة للتفكير والتّمعّن في حقيقة ما يستفهم عنه، ودفعهما إلى الارتياب فيه، وبالتالي حمله على الاقتناع بالحقيقة، وتحفيزه على الأخ دبها دون جبرٍ أو قسرٍ أو إكراه.

12– التقرير والحثُّ :

❖ في قوله تعالى :﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف، الآية: 50].

أ – سياق الآية :

لمّا عجز المفسّرون من حاشية الملك، عن تأويل رؤياه، ونجاح " يوسف " عليه السلام في ذلك، أمر الملك رسوله بالذهاب مرّة أخرى إلى السجن، وإحضار " يوسف"، وقد كانت رغبته في رؤيته شديدة، ذلك أنّه تعجّب من حسن تأويله لهذه الرؤيا التي أرّقته، وأخد يقارن بين تفسيره لها، وتفسير هؤلاء الكهنة العاجزين، لكنّ "

[1]– أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج 5، ص 309.

يوسف " عليه السلام لم يستعجل الخروج من السجن، حتى تتحقّق قضيته، وتُعلن براءته على الملأ، فنراه يقول لرسول الملك: (ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النسوة اللاّتي قطّعن أيديهُنّ)، « فقد ردّ يوسف أمر الملك باستدعائه، حتى يستوثق من أمره ويتحقق من شأن النسوة، وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون أن يتدخل هو في مناقشتها ».[1] مطمئنًا " عليه السلام " أنّ الحقّ سيظهر مهما طال الزمن.

ب – الفعل الكلامي المباشر وبعده التداولي:

يتّضح من سياق الآية، أنّ الفعل الكلامي الوارد بصيغة الاستفهام، قد خرج عن مُقتضى الظّاهر وأفاد معنى التقرير، " فيوسف " عليه السلام لا يريد بكلامه الاستخبار قطعًا، وهو العالم بالقصة كاملةً، وإنّما أراد بهذا الفعل الكلامي التوجيهي تنبيه المخاطَب وحثّه وتحريضه على معرفة حقيقة أمر النّسوة اللاّتي قطّعن أيديهُنّ، فيقرّر براءته ويرفع عنه التّهمة التي أُلصقت به ظُلمًا، وسُجن بسببها طيلة هذه السنين، وهذا ما ذهب إليه " ابن عاشور " حيث يقول : « والسؤال مستعملٌ في التنبيه دون طلب الفهم، لأنّ السائل عالمٌ بالأمر المسؤول عنه، وإنّما يريد السائل حثّ المسؤول عن علم الخبر ».[2] لذلك عمد " يوسف " إلى القول (فاسأله ما بال النسوة) ولم يقل (سَلهُ أن يفتّش عن شأنهنّ) « حثًّا للملك على الجدّ في التفتيش ليتبيّن براءته، وتتّضح نزاهته؛ إذ السؤال ممّا يهيج الإنسان عمّا توجّه إليه، وأمّا الطّلب قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالي به ».[3] فترك التفصيل في الكلام ليُبقيه غامضًا لدى الملك، وصاغه في صيغة الاستفهام لا الطلب، حتى يبُثّ الشوق والفضول في قلب المخاطَب فيجتهد في معرفة هذا الشأن، وبهذا تظهر الحقيقة للناس، « لئلا يقولوا : ما خلد في السجن سبع سنين إلاّ لأمرٍ عظيم وجرمٍ كبير حقَّ به أن يُسجن ويُعذّب ».[4] لذلك نجده يقتصر على وصفهنّ بقطع الأيديّ، ولم يصرّح بأمر المراودة، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله (إنّ ربي بكيدهنّ عليم) تلميحًا لا تصريحًا، وبالتالي نرى أنّ المتكلم قد استطاع من خلال هذا الفعل الكلامي المباشر، تحقيق مآربه التي لا تُظهرها البنية السطحية للعبارة، وإنّما دلّت عليها الظروف الخارجية المؤطّرة للخطاب؛ إذ علمنا أنّ المستفهم عالمٌ بالقصّة، بل هو جزءٌ منها، بينما يجهلها

---

[1]– سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 1994.

[2]– ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج 12، ص 289.

[3]– أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 4، ص 284.

[4]– أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج 5، ص 315.

المخاطَب، ولا يملك لهذا الاستفسار جوابًا، وهذا ما حمله على التقصّي في شأن النسوة، ومن ثمّ إظهار الحقيقة وتثبيتها، وهكذا تتحقق إنجازية الفعل الكلامي غير المباشر وغرضه التأثيري على النحو التالي :

(**ما بال النسوة..**):
- **الفعل الكلامي المباشر**: الاستفهام، وهي دلالة صريحة تُفهم من العناصر التركيبية للعبارة، حيث أنّ مؤشّر القوة الإنجازية الحرفية هو (ما) ويُستفهم بها عن ماهية الشيء.
- **الفعل الإنجازي**: التقرير، وهي دلالة مستلزمة تُفهم من الإحاطة بالظروف الخارجية المكوّنة للخطاب الاستفهامي، فالمتكلم قد قصد تقرير براءته.
- **الفعل التأثيري**: تنبيه المخاطَب وحثُّه على البحث عن الحقيقة، ومن ثمّ إظهارها وتثبيتها.

13- التقرير والتّعجب :

❖ يقول الله تعالى على لسان إخوة " يوسف " عليه السلام :﴿ **قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف، الآية: 90].

أ – سياق الآية:

هذا الخطابُ هو جزءٌ من الحوار الذي دار بين " يوسف " عليه السلام، وإخوته حين جاؤوه يطلبون الكيل منه، فهو عزيز مصر ولم يكونوا قد عرفوه بعد، وكان قد مسّهمُ الضرُّ فلمّا نظر إليهم، رقَّ لحالهم، لكنه أراد تذكيرهم بفعلتهم التي لا يعلم حقيقتها أحد غيرهم إلاّ الله، فقال (هل علمتم ما فعلتم)، موبّخًا ومعاتبًا إيّاهم على ذلك السوء الذي ألحقوه به وبشقيقه، فجاء ردّهم عليه باستفهام آخر (أإنّك لأنت يوسف)، وقد عرفوه ولم يبق لهم شكٌّ في ذلك، « وقيل أنّ سبب معرفتهم له بمجرّد قوله (...) أنّهم لمّا قال لهم ذلك تنبّهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلاّ هو ».[1] ثمّ إنّه ابتسم لهم وأجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه [2].

[1]- الشوكاني : فتح القدير، ص 712.

[2]- ينظر : المرجع نفسه، ص ن.

ب – بيان البعد التداولي للفعل الكلامي:

يتّضحُ من السياق، أنّ المراد بالاستفهام الصّادر عن المتكلم (أإنّك لأنت يوسف) هو ما يستلزمه اللّفظ من دلالة باطنية ضمنيّة، لا من الدلالة السطحية التي تُستشفُّ من ظاهر التركيب، ليخرج الاستفهام بهذا من معناه الأصلي وهو الاستفسار وطلب الفهم، إلى معنى آخر هو التقرير يُخالطه التّعجّب، ذلك أن المتكلم (الإخوة) قد غلب يقينهم الشكّ، وأدركوا أنّ هذا الماثل أمامهم هو يوسف بعينه، فلم ينتظروا منه إجابةً، وإنّما أرادوا منه إثباتها فالاستفهام هنا تقريري، وهو استفهام العالم عن الشيء مع علمه به، وهذا كما تقدّم يُبطل جريان الاستفهام على حقيقته، وهو تمامًا ما ذهب إليه " أبو السعود " في تفسيره، حيث يقول: « (قالوا أإنّك لأنت يوسف) استفهام تقرير، ولذلك أكّدوه بإنّ واللّام، قالوه استغرابًا وتعجّبًا ».[1] فهم إلى جانب وثوقهم من كونه هو، أخَذ بهم العجبُ مأخذهُ، واستغربوا من هذه الحال التي صار إليها، فكأنّهم يقولون « متعجّبين مستغربين : أأنت يوسف حقًّا ؟ ».[2] وما يُثبت خروج الاستفهام إلى هذا المعنى، وأنّ الإخوة قرّروه على أنّه يوسف ،هو أنّه قد أقرّ لهم وقال (أنا يوسف)، فالمتكلم فضلاً عن أنّه أراد تحقيق هذا الأمر وإثبات هذه الحقيقة، قد جعل المخاطَب يقرُّ بما يريده، وبالتالي تحقّق الغرض الإنجازي لهذا الفعل الكلامي غير المباشر، حيث جعل المتلقي يستقبل الجملة الاستفهامية التقريرية كحقيقة لا مناصّ من الإقرار بها، وحمله على الاعتراف بأمرٍ قد استقرّ عنده سواءًا بالثبوت أو بالنفي، وهو هنا بالثبوت لأنّ المتكلم متيقّن، لذلك نجد أنّ الاستفهام عنده يغلبُ عليه طابع التأكيد المتبدّي من هذا الخطاب، وذلك بدلالة (إنّ) و(لام التوكيد)، والتوكيد كما نعلم يقتضي الإثبات والتحقيق المخالف للاستفهام الحقيقي.

وعليه فقد تعدّدت الدّلالات الإنجازية والمنطوق واحدٌ، وهذا التعدد قد ظهر بمعونة المقام وما يرمي إليه المتكلم من مقاصد، ونلخّص ذلك فيما يلي :

[1]– أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 4، ص 304.

[2]– محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج 2، ص 65.

(**أإنّك لأنت يوسف...**) :

- **فعل القول**: وهو الفعل المعجمي الدالّ على الاستفهام المحض، ومؤشر قوّته الإنجازية الحرفية هي همزة الاستفهام + بقيّة التركيب الاستفهامي.
- **الفعل المتضمّن في القول**: وهو الفعل الإنجازي غير المباشر المتمثّل في التقرير والتّعجّب، يُستساق من قرائن الأحوال وطبقا للمقاصد.
- **الفعل التأثيري**: تمثّلَ في حمل المخاطَب على الإقرار والاعتراف والتسليم.

14 – التوبيخ و الإنكار :

❖ في قوله تعالى :﴿ **وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [هود، الآية: 30].

أ – سياق الآية :

تذكُرُ كتب التفسير، أنّ قوم نوح المشركين اشترطوا عليه حتى يتّبعوه أن يقوم بطرد هؤلاء المؤمنين أتباعه الفقراء وذلك في قولهم (ومانراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا) هود 27. وكأنهم أرادوا القول له، إن أحببت أن نتّبعك فاطردهم، لأننا لا نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء، فقد سألوه ذلك رفعًا لأنفسهم من مساواة أولئك الفقراء، ولكن "نوح" عليه السلام يرفض ذلك (وما أنا بطاردٍ الذين آمنوا)هود 29. وسيجازيهم على أعمالهم وإيمانهم وليس على حسبهم وشرفهم، ووصفهم بالجهل، جرّاء اغترارهم بالمظاهر [1].

ب – تحليل الفعل الكلامي وغرضه الإنجازي :

طرح المتكلم في هذا الخطاب، استفهامًا إنكاريا، إنكارًا منه لهذا الطلب الذي أتاه به المخاطَب، وموظّفًا إيّاه على سبيل التوبيخ، فهذه الدلالة غير المباشرة للفعل اللغوي، اقتضتها مقاصد المتكلم، وفرضها المقام الذي أُنجز فيه فمقام الإنكار لا يتمّ فيه استجواب المخاطب في شيء، بل يستهجن منه ما صدر عنه، بُغية ردّه عنه، ويؤكد الإمام "ابن عاشور " على ذلك في قوله : « (...)وفرع على ذلك إنكارا على قومه في إهمالهم التّذكّر، أي التأمل في الدلائل ومدلولاتها، والأسباب ومسبباتها ».[2] فلمّا ألقى المتكلم ملفوظه بهذه الصّيغة المتضمّنة لمعانٍ

[1]– ينظر: المراغي: تفسير المراغي، ج12، ص 28. وأبو حيان الأندلسي: تفسير المحيط الكبير، ج5، ص 218.

[2]– ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص 56.

تداولية أخرى لا تتطابق وظاهر الكلام، كان له وقعٌ أبلغ وأشدُّ في نفس المتلقي، لأنه عِوَضَ أن يردّ على طلبهم بالرّفض المباشر أو أن يبيّن لهم استهجانه الصريح منهم، عمد إلى إجابتهم بفعلٍ كلامي غير مباشر، قوّته الإنجازية المستلزمة هي الإنكار المتضمّن للتوبيخ، وأمّا غرضه التأثيري فهو الحثُّ على التّذكّر، ودفعه إلى مراجعة أقواله، والتأمل في باطن الأمور لا في ظاهرها، حتى يتبيّن له سوء عمله، ولو أنه استخدم دلالة الإنكار أو التوبيخ المباشر، كأن يقول (عيبٌ عليكم...)، لكان التأثير أقلّ ولربّما يفضي إلى نتائج أخرى غير التّسليم والإذعان.

ويمكن إبراز كيفية انبثاق الغرض الإنجازي والبعد التأثيري، عن القوة الإنجازية الحرفية للفعل الكلامي فيما يأتي:

(أفلا اتذّكّرون):

– **قوّته الإنجازية الحرفية:** الاستفهام المحض، ومؤشره اللغوي هو الهمزة والفعل (ذكر).

– **غرضه الإنجازي:** وهو القصد من وراء إلقاء هذا الملفوظ، وقد أراد به المتكلّم أن ينكر على المخاطب قوله ويوبّخه عليه.

– **غرضه التأثيري:** ويتمثّل في آثار الفعل الإنجازي ونتائجه على المتلقي، وهو هنا جعله يعيد التفكير والتأمل، وحثّه على الاعتبار والاتّعاظ.

❖ يقول الله تعالى: ﴿ **وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ** ﴾ [هود، الآية: 78].

أ – سياق الآية:

يوجّه "لوط" هذا الخطاب لقومه الظالمين، حين زارته الملائكة بهيئة رجال حسان الوجوه، فجاءه قومه يهرولون طالبين منه أن يُخلي بينهم وبين ضيفه، وقد كانوا من قبل هذا المجيء يرتكبون الفاحشة، فَبَلَغ الكرب بلوطٍ مبلغه وطلب منهم أن يتقوا الله في ضيفه، ولا يهينونه بهذه الفضيحة الشنيعة، موبّخًا إياهم على هذا الطلب، ومُنكرًا عليهم ألا يكون من بينهم رجلٌ واحد حكيم ذو رُشد ينهاهم عمّا ينوُون القيام به، ويحُول بينهم وبين ضيفه [1].

[1]– ينظر: المراغي: تفسير المراغي، ج12، ص ص63– 64.

ب – بيان الفعل الكلامي وغرضه الإنجازي:

يُوحي ظاهر الخطاب، بأن الفعل الكلامي الذي جاء بصيغة الاستفهام، يريد به المتكلم ردًّا، وهذا إذا عزلنا العبارة عن مقامها الذي أُنجزت فيه، فإذا علمنا أن المتكلم يسوق استفهامه مساق الإنكار والتوبيخ، تولَّدت عن الفعل الكلامي المباشر معانٍ أخرى سياقية مستلزمة، فالاستفهام هنا إنكاري يتضمن معنى التوبيخ، وتقدير الكلام : « أي أليس يوجد فيكم ذو عقل متّزن غير سفيه، فيكفكم عن هذا الفعل القبيح ».[1]وفي ذلك « توبيخٌ عظيم لهم حيث لم يكن منهم رشيدٌ البتّة ».[2] وقد أراد به المتكلم أن ينهي المخاطب عمّا ينوي فعله، فعمد إلى استنكار هذا الطلب الذي جاؤوه من أجله، وتقبيحه في نظره، لعلّه يرتدع عنه، وعزّز ذلك بترغيبه أوّلاً، وذلك من خلال قوله (هؤلاء بناتي هُنّ أطهر لكم)، ثمّ أعقبَ ذلك بدعوته إلى التقوى، وبالتالي استطاع صاحب الخطاب أن ينجز فعلاً لغويًّا غير مباشر يتمثل في المعاني الضمنية المشتقة أو المستلزمة عن المعنى الأولي، ويُستدلُّ عليها من خلال المقام، ويفهمها المخاطَب بالنّظر إلى العلاقة التي تجمعه بالمتكلم وطبيعتها.

15– التوبيخ والتّقريع :

في قوله تعالى :﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [يوسف، الآية: 109].

أ – سياق الآية:

تروي الآية الكريمة حال المشركين المكذّبين والمنكرين لنبوّة الرسول "محمد" صلى الله عيه وسلم، وكيف أنهم « لم ينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم، حتى ينزعوا عمّا هم فيه من التّكذيب ».[3] ذلك أنّ النظر في آثار الغابرين، يهزّ القلوب، ويبعث على التوعية والموعظة، ومن ثمّ فلهم أن يدركوا أن مصيرهم واحد، إذا ما هم ثبتوا على حالهم من التعنّت والكفر والجحود، وأنّ سنّة الله في آثار الأمم السالفة ستنالهم بلا ريب، و أنّ عاقبتهم في

[1]– محمد الأمين الشنقيطي: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود، ص 193.

[2]– أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج5، ص 247.

[3]– الشوكاني: فتح القدير، ص 717.

هذه الأرض إلى ذهابٍ (ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتّقوا)، فهل تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة (أفلا تعقلون)[1].

ب – تحليل الفعل الكلامي و غرضه الإنجازي :

داخل هذا الخطاب الاستفهامي، معانٍ يكشفُ عنها سياق النصّ، تعبّر عن غرض الدهشة والتّعجب والاستغراب، من الكفّار والمشركين، كيف أنهم لم يعتبروا ممّا آلت إليه الأمم التي سبقتهم، وأنه لا أثر لهم قد بقيَ فجاء التساؤل : (أفلم يسروا...) للتّوبيخ والتّقريع، فالله عزّوجل يوبّخهم على هذه الغفلة، « فلا تدخل همزة التوبيخ إلاّ على فعلٍ قبيحٍ، أو ما يترتّبُ عليه فعلٌ قبيح ».[2] ومنه فإنّ مؤشّر القوة الإنجازية (الهمزة) ليس المراد منها انتظار الجواب، وإنّما جاءت للاستفهام التوبيخي والتقريعي، والذي يقتضي أنّ المخاطَب قام بفعلٍ يستلزمُ توبيخه عليه وتقريعه[3]، ومن ثمَّ وجَبَ تنبيهه بعد ذلك وتذكيره حتى يعود إلى رشده.

(أفلم يسيروا...) :

– **الفعل الكلامي المباشر**، وهو الذي يؤدّي الدلالة الأولية المتمثّلة في الاستفهام الحقيقي، والمتطابق مع معنى الخطاب ظاهريًّا، فقوّته الإنجازية الحرفية هي الاستفهام، وأمارتها أداة الهمزة.

– **الفعل الكلامي غير المباشر**، وهو الذي يؤدّي الدلالة النّهائية وهي هنا التّوبيخ والتّقريع، وهي معانٍ استلزمها المقام وقرائن الأحوال، ولا تُطابقُ المعنى الحرفي للعبارة الاستفهامية.

16– التوبيخ والتّقريع والعتاب :

❖ في قوله تعالى :﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾[يوسف، الآية: 89].

[1]– ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 2035.

[2]– الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 357.

[3]– عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص 102.

أ – سياق الآية:

تروي الآية الكريمة، مقطعًا من الحوار الذي دار بين "يوسف" عليه السلام وإخوته، لما دخلوا عليه وهو عزيزُ مصرَ، طالبين منه الكيلَ، للمرة الثالثة، وقد أضرَّ بهم الجوعُ، ونفِدَ مالهم، يدخلون عليه، وفي حديثهم انكسارٌ ورجاءٌ في الوقت ذاته؛ إذ قالوا له : (يا أيها العزيزُ مسَّنا وأهلَنا الضرُّ وجِئنا ببضاعةٍ مُّزجاة فأوْفِ لنا الكيلَ وتصدّق علينا إنّ الله يجزي المتصدّقين) يوسف-88- [1]، فقيلَ أن "يوسف" لما رأى حالهم هذه، رقَّ قلبه، وأراد كشف أمره لهم، فيعود إلى الماضي البعيد، الذي يعرفونه وحدهم، ولم يطّلع عليه أحدٌ إلا الله، فقال : (هلْ علمتُم ما فعلتُم بيوسُفَ وأخيهِ)، والذي فعلوه به هو ما تقدّم في القصة التي ترويها السورة الكريمة، وأمّا ما فعلوه بأخيه، فقيل ما أدخلوه عليه من الغمّ بفراق أخيه "يوسف"، وما كان ينالهُ منهم من الاحتقار والإهانة.[2]

ب – تحليل الفعل الكلامي:

(**هل علمتُم**...) :

– **فعل كلامي مباشر**: هو الاستفهام المحضُ، يدلُّ عليه ظاهرُ التّركيب، وقوّته الإنجازية الحرفية معبّر عنها بالأداة الاستفهامية (هل)، المختصّة بطلب التّصديق، يليها الفعل الماضي (علمتم).

– **فعل كلامي غير مباشر**: يفيد دلالة التّقريع والتّوبيخ والعتاب، وهو مخالفٌ لما تبدو عليه دلالة البنية السطحية للعبارة، لذلك فهي معانٍ تطلَّبها سياق الكلام، ومقاصد المستفهم.

يتراءى لنا، في هذا الحوار القائم بين "يوسف" وإخوته، أنّ الفعل الكلامي المباشر (هل علمتم) لا يُرادُ به ردًّا من المخاطَب بنعم أو لا، وإنّما يخرج عن بابه، وينحو منحى تداوليًّا، ذلك أن "يوسف" يعلم أنهم يعلمون، وهو ما سبق تسميته ب (تجاهل العارف)، و يعني سؤال المتكلم عمّا يعلمه حقيقةً تجاهلاً منه، ليُخرج خطابه الاستفهامي مخرجًا آخر، وهنا كان بدافع التوبيخ والتّقريع والعتاب، "فيوسف" عليه السلام يُذكِّر إخوته مؤنّبًا وموبّخًا، بما فعلوه

[1]– ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ص 2027.

[2]– الشوكاني: فتح القدير، ص 712.

في حقه وحقّ أخيه وقت أن كانوا جاهلين، وهو ما ذهب إليه "الشوكاني" في تخريجه لدلالة الاستفهام، حيث قال : « الاستفهام في قوله : (هل علمتم) للتّوبيخ والتّقريع، وقد كانوا عالمين بذلك، ولكنه أراد ما ذكرناه ».[1] ويؤكّد "الألوسي" ذلك قائلاً : « الاستفهام ليس عن العلم بنفس ما فعلوه، لأن الفعل الإرادي مسبوقٌ بالشعور لا محالة، بل هو عمّا فيه من القُبح بدليل قوله (إذ أنتم جاهلون)؛ أي هل علمتم قُبح ما فعلتموه زمان جهلكم ».[2] فقد أتبعَ "يوسف" استفهامه ذاك بقوله (إذ أنتم جاهلون) وقد أراد به : نفي العلم عنهم، وإثبات صفة الجهل لهم « فكأنّه قال : إنّما أقدمتُم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم، وقصور معارفكم عن عاقبته ».[3]

وإذا نظرنا إلى فحوى الحوار القائم بين "يوسف" وإخوته، في قولهم له (فأوْفِ لنَا الكيْلَ وتصدّق علينا)، نجد أنّ "يوسف" قد خرق إحدى قواعد الحوار، وهي قاعدة المناسبة، وفحواها كما علمنا (أن تجعل كلامك مناسبا للموضوع)، ذلك أنّه ردَّ على طلبهم بالاستفهام (هل علمتم)، ويمكن إيضاح هذا الخرق، وما استلزمه من دلالات استلزامية جديدة (التوبيخ والتّقريع)، كما يلي:

– الإخلال بقاعدة المناسبة: ممّا جعل المخاطَب (الإخوة)، يقوم بعمليات ذهنية استدلالية قصدَ الوصول إلى تأويلات أخرى للفعل الكلامي، غير المعنى الحرفي المباشر له.

– الاستلزام: جاء ردُّ المتكلم (يوسف) على طلب المخاطَب (الإخوة) بالتّصدّق عليهم باستفهام، وقد عمدَ إلى توظيفه لمقاصد أخرى لا تتطابق وبنيته اللّفظية، ممّا تولّد عنه دلالات استلزامية بمعونة المقام وقرائن الأحوال.

– الدلالة المستلزمة: لقد أدّت مقاصد المتكلّم، إلى توظيفه هذا الجواب الوارد بصيغة الاستجواب، لأنه أراد من وراءه توبيخ إخوته ومعاتبتهم، وبيان سوء ما فعلوا به وبشقيقه، وقد أدّى بهم إلى القيام بعمليات ذهنية استدلالية قادتهم إلى التّوصّل إلى معرفة الحقيقة، وأنّ هذا القابع أمامهم هو أخوهم يوسف نفسه، فقد « تنبّهوا وفهموا أنّه لا

[1]– الشوكاني: فتح القدير، ص 712.

[2]– الألوسي: روح المعاني، ج7، ص 45.

[3]– الشوكاني: المرجع السابق، ص نفسها.

يخاطبهم بمثل هذا، إلاّ هو ».[1] فَتبِعَ استجوابه لهم، قولهم: (أئنّكَ لأنتَ يوسف)، وكان جوابه هذه المرة مناسبًا لسؤالهم (قال أنَا يُوسف).

17 – النفي والتخويف :

❖ يقول الله عز وجل على لسان امرأة العزيز :﴿ **وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾.[يوسف، الآية: 25]

أ – سياق الآية :

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى وصّية العزيز لامرأته بإكرام " يوسف" عليه السلام والإحسان إليه، وعلّل ذلك بحسن الرّجاء فيه، ذكَرَ هنا مروادتها له، ونظرها إليه بعينٍ سيئة، وإعدادها العُدّة لتوقعه في حبالها، لكنها لم تجد منه سوى الصدّ والتّمنُّع، فلمّا تسابقا إلى الباب في محاولةٍ منه للهروب، وفي محاولةٍ منها لإرجاعه، وجدا زوجها عند الباب، فما كان منها إلاّ إلصاق التّهمة " بيوسف " مُستعينةً في ذلك بمكرها وحيلتها، ومُخبرة إيّاه بأنّ من أراد بأهله سوءًا لا يكون جزاؤه إلاّ السجن، أو العذاب الموجع الذي يلزم المذنب الطاعة [2].

ب – الفعل الكلامي المباشر وغرضه الإنجازي :

يُظهر سياق الآية، أنّ اِمرأة العزيز في طرحها لهذا التساؤل، لم تنتظر جوابًا من زوجها، وإنّما بادرت لإجابة نفسها بنفسها، لأنها لم تكن تقصد السؤال، بل كانت لها أغراضٌ خفيّة من وراء هذا الكلام، أوّلها نفي التّهمة عنها أمام زوجها، فبادرت هي بذكر العقاب كي لا تترك مجالاً للشكّ بأنّها بريئة، وإلى جانب ذلك قصدت أن تنفي أن يكون هناك جزاءٌ آخر بخلاف ما ذكرته وهو : السجن أو العذاب، فيكون المعنى : « ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم ».[3] فقد حدّدت الجزاء بين هذين النوعين، وكأنها بذلك تُبعد أي فكرة أخرى كالقتل مثلا أو التهجير عن ذهن زوجها، وذلك لأنها لازالت عند رغبتها "بيوسف"، آملةً في استجابته لها، فضلاً عن

[1]– الشوكاني، فتح القدير، ص 712.

[2]– المراغي: تفسير المراغي، ج12 ، ص ص 129، 132.

[3]– أبوالسعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 4، ص 268.

مكانته في قلبها ما كانت لترضى بموته أو بُعده، « فأفرغت الكلام في قالبٍ كليٍّ ليأخد صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها، فلا يسع المخاطَب إلاّ الإقرار بها ».[1] وأمّا الثاني فتمثّل في التخويف، وهو مرتبطٌ بغرضها الأوّل؛ إذ أنّها أرادت من حصرها الجزاء « تخويفه طمعاً في أن يؤاتيها خيفةً منها ومن مكرها وكرهًا لما أيِسَت من مؤاتاته طوعًا ».[2] فهي قد ألقت بتساؤلها ذاك تهويلاً للأمر ومبالغةً في التخويف، وكأنّها حدّدت ذلك القانون ليكون مطردًا في حقّ كل من أراد بأهل العزيز سوءًا [3]. لذلك نرى أنّ القوّة الإنجازية المستلزمة للفعل الكلامي تخالف ما يوحي به ظاهر الملفوظ، وقد ساعد في تحقيق ذلك قرينة المقام وما أنتجه من معانٍ مضمرة تعود للمتكلم، ألقاها بصيغة تداولية غير مباشرة بطريق الاستفهام، وعليه تكون إنجازية الفعل الكلامي غير المباشر كالآتي :

(**ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا**) :

- **دلالته الصريحة:** الاستفهام المحض ودلّت عليه (ما) الاستفهامية + الاسم (الجزاء) وهي هنا لتحديد ماهيّة الشيء.
- **دلالته الخفيّة:** النفي، وقصدت به نفي أن يكون هناك احتمال لجزاءٍ آخر غير ما ذكرته. والتخويف، وقصدت به تخويف " يوسف " وبثّ الهلع في نفسه إن لم يمتثل لطلبها ورغبتها.

18– النفي والإنكار :

❖ يقول الله تعالى: ﴿ **وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [هود، الآية: 30].

[1]– ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج 12، ص 256.

[2]– الزمخشري: الكشاف، ص 511.

[3]– الألوسي، روح المعاني، ج 12، ص 218.

أ – سياق الآية :

يخاطب " نوح " عليه السلام في هذه الآية، قومه الضالين الذين طالبوه بطرد أولئك المؤمنين الفقراء الذين اتّبعوه متعلّلين بأنّهم لا يرضون بأن يكونوا في الأمر سواء، وقيل أنهم قالوا له إن أحببت أن نتّبعك فاطرد هؤلاء الأراذل لكن " نوحًا " أنكر عليهم ذلك ورفض طردهم من مجلسه بعد أن آمنوا، ووبّخ قومه على جهلهم بالقيم الحقيقية التي يُقدّر بها الناس عند الله، واغترارهم بالمظاهر، وغفلتهم عن حقائق الأمور، مُبيّنًا لهم أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده سيحاسب الجميع على أعمالهم، وأنّه إن طرد هؤلاء المؤمنين الفقراء، فلن يُنجيه أحد من عقاب الله، فهم أكرم عنده سبحانه من كلّ من هو غنيٌّ وكافرٌ منهم [1].

ب – الفعل الكلامي غير المباشر وغرضه الإنجازي :

يوجّه " نوح " عليه السلام خطابه الاستفهامي إلى قومه في هذه الآية، مُريدًا به غير ما يقتضيه ظاهر اللفظ من معنى الاستجواب، وإنّما ساق كلامه مساق الإنكار والنفي، فقد أنكر على قومه شرطهم الذي أتوا به كي يتّبعوه فاتّخذوا من هؤلاء الفقراء الذين آمنوا به حجّة كي يمتنعوا عن دعوته للتوحيد وعبادة الله، وقالوا هؤلاء أراذلنا لا نستطيع أن نكون وإيّاهم في المنزلة نفسها، فاطردهم إن أردت أن نتّبعك، وأنكر أن يكون هناك مُنقذٌ له من الله وغضبه وبطشه إن هو أقدم على هذا الفعل القبيح، فلجأ إلى الفعل الكلامي المباشر الذي يفيد معنى الاستفهام مُضمِّنًا إيّاه هذه المعاني، حتى يكون أكثر وقعًا على المتلقّي وذلك بحمله على التفكير والتّمعن في حقيقة الأمر، وبالتالي ترتّب عن هذه الصّيغة المباشرة، قوّة إنجازية غير حرفية هي الإنكار والنفي، وتقدير قوله (من ينصرني من الله) : « لا ناصر يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم بالطرد عن الخير الذي قبلوه ».[2] أي لا أحد منكم أو من غيركم سيُخلّصني أو ينجيني من عقاب الله، وهذا ما ذهب إليه " الألوسي " في تخريجه للآية، حيث يقول : « والاستفهام للإنكار أي لا ينصرني أحد من ذلك ».[3] وكان بمقدور المتكلم أن ينفي الأمر بأسلوبٍ مباشر يفيد دلالة النفي الصريحة، لكنه آثر صياغة إنكاره ونفيه بطريق الاستفهام المتضمّن لهذه الأغراض الإنجازية المضمرة لكي يترك للمتلقي فُسحة لإعادة النّظر والتفكير في صحة ما يطلبه من المتكلم، لعلّه يعود إلى رشده،

---

[1]– ينظر: محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، مج 7، ص 195.

[2]– عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/ 2001م، ص 165.

[3]– الألوسي: روح المعاني، ج 12، ص 42.

لذلك نجد " نوحاً " عليه السلام قد أتبع كلامه وعزّزه باستفهام ثانٍ في قوله (أفلا تَذَكّرون) هود 30. أي أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل وتنسون أنّ لهم ربًّا سينصرهم ويحميهم إن طردتهم [1].

ويمكن توضيح كيف خرج الفعل الكلامي المباشر لتأدية هذه الأغراض الإنجازية المستلزمة فيما يلي:

(من ينصرني من الله) :

- **فعل كلامي مباشر:** هو الاستفهام، قوته الإنجازية حرفية دلّت عليها (من) الاستفهامية للسؤال عن الفاعل + الفعل المضارع (ينصر).
- **فعل كلامي غير مباشر:** هو الإنكار متضمّن معنى النفي، قوته الإنجازية غير حرفية، يُستدلُّ عليها مقاميا فهي معان مستلزمة أثرها على المتلقي هو دفعه إلى إعادة التفكير وردّه عن غفلته.

19 – الأمر والحثُّ :

❖ يقول الله تعالى: ﴿ **فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [هود، الآية: 14].

أ – سياق الآية:

قيلَ أنّ هذا الخطاب موجّهٌ للمؤمنين، وقيل للمشركين[2]، فلهذه الآية الكريمة تأويلان كما ذهب المفسّرون :[3]

– الأول: أن تكون المخاطبة من النّبي صلى الله عليه وسلم للكفّار؛ أي فإن لم يستجيب من تدعون إلى شيء من المعارضة ولا قَدَرَ جميعكم عليها، فأذْعِنُوا حينئذٍ واعلموا أنّه من عند الله.

– الثاني : أن تكون مخاطبة من الله تعالى للمؤمنين؛ أي إن عجز هؤلاء المشركون عن الفوز في هذا التّحدي، وهو الإتيان بمثل القرآن، فاعلموا أنّ ذلك من عند الله فدوموا على علمكم هذا، وتمسّكوا بدينكم بعد أن اطمأننتُمْ.

---

[1]– ينظر: الألوسي: روح المعاني، ج 12، ص 42.

[2]– ينظر: البغوي: تفسير البغوي، مج 4، ص 165.

[3]–ابن عطية : المحرر الوجيز، ج3، ص ص 155– 156.

ب – تحليل الفعل الكلامي وبُعده التداوليّ:

ورَدَ الفعل الكلامي في هذا النّص بصيغة الاستفهام، وقد علِمنا أنّه واحدٌ من الآليات التداولية التوجيهية، الذي يلجأُ إليه مستعمل اللغة للتّحكّم في مجريات الخطاب، والسيّطرة على ذهن المتلقي، وإلحاقِ أثرٍ ما به، فمن ذلك أنّه يكون فعلاً كلاميًّا غير مباشر، تؤدّي قوّته الإنجازية غير الحرفية معنى الأمر والحثّ، كما هو الحال في هذه الآية، فبالرّكون إلى التأويل الأول لها، يكون المعنى الضّمني للعبارة الاستفهامية هو الأمر يخالطه الزّجر، فبعد أن ثبُت إعجاز القرآن الكريم، وفشلُ المشركين في الإتيان بمثل سورهِ، وظهور الحجّة القاطعة من أنه منزّل من عند الله عزّ وجل، وغيرُ مفترى كما ادّعوا؛ إذ يظهر ذلك العجز في قوله : (فإن لم يستجيبوا لكم)؛ أي « لم يَقْدِر فصحاؤكم و بلغاؤكم على الإتيان بعشر سورٍ مفتريات، إن كنتم تزعمون أن هذا القرآن مُفترى من دون الله ».[1] فجاء قوله : (فهل أنتم مسلمون) « ومعناهُ أمرٌ أي فأسلموا بعد ظهور هذه الحجّة القاطعة؛ إذ لم يبقَ لكم عذرٌ مانع من ذلك ».[2]وعليه يكون معنى الاستفهام هنا « استدعاءٌ إلى الإسلام، وإلزامٌ للكفار أن يسلموا لما قام الدّليل على صحّة الإسلام ».[3] وفيه زجرٌ لهؤلاء المشركين إذا ما ظلّوا يُكابرون، و يواجهون هذه الحقيقة بغير التّسليم.

وأمّا إذا أخدنا بالتّأويل الثاني، فيكون قصد المتكلم من الاستفهام، أي دلالته غير الصريحة هي الحثُّ، ويلجأ المتكلم إلى توظيف الاستفهام بهذا الغرض؛ أي الحثُّ على فعل الشيء أو تركه، ليبعث في النصّ حياةً و حركة، والأهمّ أنّه يمنحه القدرة على الإقناع ويجعل المتلقي أكثر تفاعلاً مع الهدف المنشود[4]، وهذا هو الهدف من الفعل الكلامي غير المباشر، فالله سبحانه وتعالى يحُثُّ المؤمنين على التّشبُّث بدينهم، فيكون قوله : (فهل أنتم مسلمون) بمعنى : « فهل أنتم مخلصون ».[5] أي « ثابتون على الإسلام، مخلصون له مزدادون من الطاعات، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفّار عن الإتيان بمثل عشرِ سورٍ من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه (...) وإن كنتم مسلمين من قبل، فإنّ هذا الثّبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة له، مطلوبٌ منكم ».[6] فأُخرج

---

[1]– ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 1862.

[2]– محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج 2، ص 9.

[3]– المرجع نفسه، ص نفسها.

[4]– ينظر: محمود عباس عبد الواحد : قراءة النص وجماليات التلقي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1417هـ/1996، ص 120.

[5]– الزمخشري: الكشاف، ص 479.

[6]– الشوكاني: فتح القدير، ص 650.

بصيغة الاستفهام، وليس بغيرها من الصّيغ، كأن يقول : (أسلموا) بطريقة مباشرة، وذلك تلطّفًا من المتكلم في الحثّ على التّمسّك بالدّين، ولم يُخرجه بصيغة الأمر حتى لا يكون هناك إكراه؛ إذ لا إكراه في الدّين، ضف إلى أنّ « إيراد الأمر في صورة الاستفهام فضلاً عمّا فيه من تعبير مؤدّب، لأنّك تترك مخاطبك بالخيار أن يفعل، وألا يفعل فيه إغراءٌ بالعمل حثٌّ عليه ».[1] وهذا يتوافق مع الغايات التأثيرية التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها، وعليه تكون بنية الفعل اللغوي و بعده التداولي كما يلي :

(**فهل أنتم مسلمون...**) :

- **فعل القول:** الاستفهام، ومؤشر قوته الإنجازية الحرفية هو أداة الاستفهام (هل).
- **الفعل المتضمن في القول:** الأمر والحثّ، ويُستنتج من سياق الكلام، والتقدير: أسلموا أسلموا.
- **الفعل التأثيري:** وهو الفعل الناتج عن القول، يتجسّد فيه الغرض الكلامي، وهو من جهة التأويل الأول للآية يتمثل في إقناع المشركين على الدخول في الإسلام، وترك ما هم عليه من مكابرة وعناد، وأمّا من جهة التأويل الثاني، فهو حمل المسلمين على الثبات والإخلاص لدينهم.

20– الأمر والتبكيت :

❖ في قوله تعالى :﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** ﴾ [هود، الآية: 28].

أ – سياق الآية :

قد تقدّم ذكرها، وفيها بيانٌ عن قوم نوحٍ إذ كذّبوا رسالته وجحدوا نبوّته، وأنكروا أن يرسل الله رسولاً من البشر إلى خلقه ليس أفضل منهم في شيء، وزادوا على ذلك بأن اتّخذوا من أتباعه الأراذل حجّة لكي لا يتّبعوه، فردّ عليهم " نوح " بأنه إن كان على حجّة واضحة صادرة من ربّه تُثبت بأنّه على إيمان وحق، لكنكم عُميتم عن

[1]– أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص 127.

رؤية هذه البيّنة بسبب كفركم، أفتظنون أنّنا سنجبركم على تقبّل هذه الدّعوة والحال أنكم صادّون عنها، كلاّ لن يقع ذلك ولكن نفوّض أمركم إلى الله، هو الذي يقضي في أمركم ما يشاء [1].

ب – تداولية الفعل الكلامي المباشر:

لقد خرج الاستفهام الوارد في الآية عن معناه الأصلي إلى معنى تداولي، يدلُّ عليه المقام ومقاصد صاحب الخطاب، وذلك إذا علمنا أنّ المتكلم يوجّه هذا السؤال (أرآيتم) إلى المخاطَب لا لقصد استخباره، وإنّما لتعجيزه عن الجواب، حيث أمر الله سبحانه وتعالى " نوحًا " بأن يبكّت قوم، ويحملهم على الإقرار بما لا سبيل لهم إلى إنكاره، فقوله (أرآيتم إن كنت...) معناه : « أخبروني – وفيه إماءٌ إلى ركاكة رأيهم المذكور– إن كنت على حجّة ظاهرة الدلالة على صحة دعواي، إلاّ أنها خافية عليكم غير مسلّمة عندكم، أيمكننا أن نكرهكم على قبلوها وأنتم معرضون عنها غير متدبّرين ».[2] فالقوّة الإنجازية غير الحرفية للفعل الكلامي قد أفادت التّبكيت الذي جاء بأمر المخاطَب بما يعجز عن الاستجابة له لا لعدم قدرته عليه، بل لعلمه أنّ في الاستجابة لهذا الأمر دليلٌ على صدق الخصم، وكذبه في ادّعائه، وهو ما يؤدّي إلى بهتان المخاطَب وهزيمته [3]. " فنوح " عليه السلام باستفهامه عن الرؤية (أرآيتم)، فيه تنبيهٌ للقوم ؛ إذ يتنبّه المخاطَب ويصرف ذهنه إلى ما يُقال، ومحلّ التبكيت هو الأمر المذكور بعد الرؤية المستفهم عنها، فكأنّه يقول لهم إنّ « ما جعلتموه قادحًا ليس بقادح في الحقيقة، فإنّ المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النّبوة، واتّباع الأراذل كما تزعمون ليس ممّا يمنع من النّبوة فإنهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم، فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم ».[4] وعليه يكون الغرض الإنجازي للفعل الكلامي غير المباشر هو تبكيت المشركين وإقامة الحجة عليهم، و هي معان سياقية استُدِلَّ عليها بواسطة الظروف الخارجية المحيطة بالخطاب.

---

[1]– ينظر: الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مج 4، ص ص 271– 272. والشنقيطي : معارج الصعود إلى تفسير سورة هود، ص 96.

[2]– أبو حيان الأندلسي: إرشاد العقل السليم، ج 4، ص 201.

[3]– ينظر: فاضل السامرائي و سهاد جاسم عباس : التّبكيت وأساليبه النّحوية في القرآن الكريم، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية ، مجلة فصلية ديوان الوقف السني ، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، مج 2012، ع 27، 31/ 12 / 2012م، ص 153.

[4]– الشوكاني: فتح القدير، ص 655.

21- الأمر والتقرير والتّعجّب :

❖ يقول الله عزّ وجل على لسان "شعيب" عليه السلام : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود، الآية: 88].

أ – سياق الآية :

بعد أن دعا "شعيب" عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده، وأمرهم بإيفاء الكيل والميزان، وأن لا يعيثوا في الأرض الفساد، قابلوه بالاستهزاء والسّخرية ممّا يدعوهم إليه، وما زادهم ذلك إلا تعنُّتًا وعنادًا، لكن "شعيب"« يتلطّف تلطّف صاحب الدعوة الواثق من الحقّ الذي معه، ويعرض عن تلك السخرية (...)، يتلطّف في إشعارهم أنّه على بيّنةٍ من ربّه (...)، وأنه على ثقة ممّا يقول لأنّه أُوتي من العلم ما لم يُؤتوا (...)، فهو لا يبغي كسبا شخصيا من وراء دعوته لهم (...)، إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس ».[1] وأنّ الله وحده القادر على إنجاح هذه المساعي، فإليه يتوجّه كلّ مؤمنٍ تقيّ.

ب – تحليل بنية الفعل الكلامي وبعده التداولي:

جاء الفعل الكلامي في هذا الخطاب بصيغة الاستفهام، حيث تُشير إليه البنية السطحية للعبارة، لكنه هنا لا يفيد معناه الأصلي، وذلك إذا علمنا أنّ المتكلم يلمّح عن مقاصده الحقيقية عبر هذا الفعل، لتنتج عنه دلالةٌ يستلزمها الخطاب ويتلقّاها المخاطَب، وذلك طبقًا لما يقتضيه المقام الذي ينجز فيه هذا الملفوظ، وبالاستعانة بمجموعة من القرائن السياقية المشتركة لدى المتخاطبين، فقد أراد المتكلم استدراج المخاطب للاعتراف من دون أن يطلب ذلك بأسلوبٍ مباشر، وعليه يكون الاستفهام هنا قد خرج إلى معنى الأمر، وتقدير قوله (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) : « أخبروني إن كنت على حجّة واضحة من عند ربّي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ».[2] أيصحّ لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي، وتلك مهمّة الأنبياء [3]. فهو قد صاغ أمره بطريق الاستفهام، لأنه أراد أن يوضّح لهم أنه متعجّب منهم حقًّا، ودَفعِهِم إلى الإقرار بما كانوا عليه من ظنٍّ خاطئ

---

[1]- سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ص 1920.

[2]- الشوكاني: فتح القدير، ص 670.

[3]- الزمخشري: الكشاف، ص 494.

اتجاهه، وكأنّ لسان حاله يقول : « إن كنت على بيّنة يكون واضحة أترون يمكنني أن أداهنكم (...)لا والله لا يكون ذلك، ولأبلّغنّ رسالة ربي إليكم (...)، أترون أني أعصيه في نعمته، لا والله، بل سأعمل بمقتضى النّبوة (...)، فلا أتصرّف فيها بالباطل، كما تتصرّفون وتقولون، (...)لا أنهاكم عن شيء إلا كنت أول من ينتهي عنه، ولا آمركم بشيء إلا كنت أوّل مبادرٍ إلى التّلبّس به ».[1] فالاستفهام كذلك للتقرير والتعجب، "فشعيب" يقرر قومه بما كانوا يطلقوه في حقه، متعجبا من ذلك، وبالتالي فإن هذا الأغراض التي أراد المتكلم تحقيقها نراها لا تطابق القوة الإنجازية الحرفية للفعل الكلامي المباشر، فهي معانٍ تداولية خرج إليها الخطاب الاستفهامي، وهو من فصيلة التوجيهيات، وُظِّف بغرض توجيه أمر إلى المخاطب دون أن يستشعره بذلك، فيستميله ويحمله على الإقرار « وهذا النوع يسمى استدراج المخاطب (...)، وهو نوع لطيف غريب المغزى، يُتوصّل به إلى بلوغ الغرض ».[2] وعليه يمكن أن نلخّص كيف انبثَقَ عن الفعل الكلامي المباشر، أبعادٌ أخرى تداولية ذات قوة إنجازية مستلزمة عن (السياق وقرائنه + مقاصد المتكلم)، فيما يلي :

(**أرأيتم إن كنت...**) :

- **فعل القول:** جاء بصيغة الاستفهام الحقيقي، يدلُّ عليه مؤشر القوة الإنجازية المباشرة وهي (الهمزة الاستفهامية + الفعل الماضي رأى).
- **الفعل الإنجازي:** الأمر والتعجب والتقرير، وكلّها معانٍ مستلزمة للفعل الكلامي المباشر المستعمل في غير مقامه.
- **الفعل التأثيري:** تنبيه المخاطَب إلى خطئه، ونهيه عنه بعد استدراجه واستمالته.

22– التّكذيب والاستعجال والاستهزاء:

❖ يقول الله تعال :﴿ **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون** ﴾ [هود، الآية: 8].

---

[1]– محمد الأمين الشنقيطي: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود، ص ص 211– 212.

[2]– أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج5، ص 254.

أ – سياق الآية :

في الآية وصفٌ «لفنٍّ من أفانين عناد المشركين وتهكّمهم بالدعوة الإسلامية، فإذا خبّرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالبعث وأنَّ شركهم سببٌ لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرًا وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخّر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربّانية استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تهكم ظنًّا أنّ تأخّره عجزٌ ».[1]

ب – بيان الفعل الكلامي التوجيهي وبعده التداولي :

(**ليقولُنَّ ما يحبِسُهُ...**):

– **المعنى الصريح:** الصّيغة الاستفهامية المركّبة من (ما) ويُستفهم بها عن غير العاقل المبهم، يليها الفعل المضارع (يحبس)، ونوع القوة الإنجازية : حرفية مدركة مقاليًّا.

– **المعنى الضمني:** التّكذيب والاستعجال والاستهزاء، كلّها معانٍ إنجازية ملازمة للاستفهام يُحيل إليها المقام، ونوع القوة الإنجازية : مستلزمة مقاميًّا ولاتدلّ عليها قرائن لغوية.

هذا الفعل الكلامي الذي تعبّر عنه البنية الظاهرية، وتؤدّيه الدلالة الأصلية للعبارة الاستفهامية، يُوحي بأنّ المتكلم في مقام الاستفسار، وهو التساؤل عن ماهية الشيء الذي يمنع قدوم هذا العذاب الذي يتوعّدهم الرسول به، لكنّ هذا الملفوظ إذا رُوعِيَ ارتباطه بمقام إنجازه، فإنه ينحرف عن الدلالة التي تعبّر عنها صيغته الشكلية فالمتكلم هنا ينجز فعلاً لغويا آخر غير مباشر غرضه الاستهزاء بالمخاطب، واستعجال ما جاء به ومن ثمّ تكذيب وقوعه، فمن المنظور التداولي، يكون المتكلم قد عنى أكثر ممّا قال، وساعده في ذلك المقام الذي أنجز فيه القول فتقدير قول المشركين (ما يحبسه) هو: أي شيء يمنعه؟ « يقولونه استعجالاً للعذاب واستهزاءً، يعنون : أنه ليس بشيء ».[2] فهم يستهزؤون بقول الرسول ويكذّبونه، ومرادهم إنكار مجيء هذا العذاب، الذي لو كان حقيقيا لأتى وليس قصدهم الاستفسار عن حابسه، وإنّما صاغوا قولهم استفهامًا على سبيل التكذيب[3].

---

[1]– ابن عاشور: التحرير والتنوير ، ج12، ص 10.

[2]– البغوي: تفسير البغوي، مج4، ص 163.

[3]– ينظر: ابن عطية : المحرر الوجيز، ج3، ص 153.

23 _ التّعجّب والتقرير :

❖ في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ** ﴾ [يوسف، الآية: 51].

أ – سياق الآية :

لقد مرَّ في سياق الآية التي تسبق هذه، أنّ الملك لمّا استدعى " يوسف " عليه السلام إلى قصره، على إثر تفسيره للرؤيا التي أعجزت مفسّري وكهنة مصر جميعًا، رفض " يوسف " الخروج من السجن حتى يستوثق الملك من أمره، وحتى يتحقق من شأن التسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ، ولم يُسارع إلى استجابة دعوته، لأنه أراد الخروج بكرامته، وذلك برفع التهمة عنه، وبيان حقيقتها للناس، وكان له ذلك؛ إذ أمر الملك بلمّ شمل هؤلاء النسوة، ومعهم امرأة العزيز التي جمعتهنّ ذات يومٍ في قصرها، وأمرت " يوسف " بالدخول عليهنّ، وقد كان متشوّقًا لمعرفة هذا الأمر الجلل الذي أودى " بيوسف " إلى الامتناع عن إجابة الدعوة، حتى يتبيّن حقيقته، فقال (ما خطبُكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه متعجّبًا من أمرهن وفعلتهنّ، وقيل أنّه « استقصى فعلم أمرهنّ قبل أن يواجههُنّ(...) ليكون الملك على بيّنة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه ».[1]

ب – بيان البعد التداولي للفعل الكلامي المباشر :

يتجلّى لنا من خلال النّظر في هذا السياق الذي جاء فيه الخطاب، أنّ الملك قد بلغ منه الشوق مبلغه لرؤية " يوسف " من جهة، ولمواجهة هؤلاء النسوة وقصّتهنّ من جهة أخرى، فلمّا استقصى عن الأمر « وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال، ليكون الملك على بيّنة من أمره وظروفه قبل الخوض فيه ».[2] أراد أن « يواجههُنّ مقرّرًا الاتّهام ومشيرًا إلى أمرٍ لهنّ جلل ».[3]وقد تعجّب أيّما عجبٍ من حالهنّ، وما أقدمن على فعله، فقال (ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه)، والخطب هو « الشأن العظيم الذي يحِقُّ له أن يخاطَب فيه صاحبه خاصّة ».[4] وقد

---

[1]– سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 1995.

[2]–المرجع نفسه، ص نفسها.

[3]– المرجع ن، ص ن.

[4] الشوكاني: فتح القدير، ص 700.

أراد من ذلك حملهُنّ على الإقرار بما حصل، لذلك وأمام هذه المواجهة التي واجههُنّ بها، لم يملكن الإنكار وتلك غاية الاستفهام التقريري، « لا يدعُ للمخاطَب فرصة للنّقاش، والأخد، والردّ فهو يستقبل الجملة التقريرية حقيقة لا مناصّ من الإقرار بها ».[1] فكان أن قُلن بلسانٍ واحد: (حاش لله) أي : معاذ الله ما علمنا منه من سوء تنزيهًا له ولعفّته، وقد بالغن في نفي صفة السوء عنه، ويكتمل المشهد بإضافة امرأة العزيز اعترافها الخاصّ وقالت: (الآن حصحص الحقُّ أنا راودته عن نفسه)، وحَصحَص بمعنى : ثَبُتَ واستقرَّ، والحقُّ هو براءة " يوسف " عليه السلام، وهكذا نرى كيف نجح المتكلم في تحقيق مقاصده، ودفعه المخاطَب إلى الاعتراف بالحقيقة إذ « لا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة، واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء ممّا قذفنهُ به لأنهنّ خصومه، وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحدٍ مقال ».[2] ومنه فإنّ الفعل الكلامي المباشر بصيغة الاستفهام، قد انجرّ عنه معانٍ أخرى تداولية، تُفهمن من السياق وقرائنه، وتكون قوته الإنجازية غير الحرفية متمثّلة في التعجّب والتقرير.

24– التّعجّب والاستغراب والاستبعاد :

❖ يقول الله تعالى على لسان " سارة " زوجة " إبراهيم " عليه السلام :﴿ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** ﴾[هود، الآية: 72].

أ – سياق الآية :

الكلام ها هنا صادرٌ عن " سارة " زوجة النّبي " إبراهيم عليه السلام، التي « كانت عقيمًا لم تلد وقد أصبحت عجوزًا. ففاجأتها البشرى بإسحاق (...)، والمرأة – وبخاصّة العقيم – يهتزُّ كيانها كلّه لمثل هذه البشرى، والمفاجأة بها تهزّها وتربكها».[3] أي أنّها لمّا بُشّرت بأنه سيكون لها ولد، تساءلت عن كون هذه البشرى حقيقية؛ إذ كيف تلد وقد أصبحت طاعنةً في السّن وزوجها شيخٌ كبير.

---

[1]– محمد شيباني: الدلالات اللغوية والبلاغية للاستفهام التقريري في القرآن الكريم ودور السياق النصي في تفجيرها، ص 6.

[2]– الزمخشري: الكشاف، ص 519.

[3]– سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ص 1912.

ب – استقصاء البعد التداولي للفعل الكلامي المباشر:

يتساءل المتكلم بهذا الملفوظ (أألدُ)، المركّب من همزة الاستفهام يليها الفعل المضارع، عن احتمال أن يكون ما بُشِّر به حقيقيًّا وقابل للحدوث، لكن السياق وقرائنه تدلُّ على أنّه لا ينتظر جوابًا أو ردًّا رغم ما توحي به هذه الصّيغة من مدلولٍ هو التساؤل، بقدر ما يتعجّبُ ويستغربُ من هذا الأمر، ومن ثمّ استبعاد وقوعه، فكأنّ زوجة " إبراهيم " عليه السلام تقول : « إنّ هذا الذي بشّرتمونا به لشيءٌ عجيب مخالفٌ لسُنن الله التي سلكها في عباده ».[1] فجاء الاستفهام هنا للتّعجّب والاستغراب والاستبعاد بقرينة المقام وقصد المستفهم، ولعدم استقامة حمله على الاستفهام الحقيقيّ، ذلك أنّ المتكلم عالمٌ بقدرة الله عزّ وجل، وأنّه لا يعجزه شيء، ولكنه وجد الأمر خارج عن العادة، وعمّا ألفه الناس، وذهب إلى استبعاد حصوله بالنّظر إلى حاله وظروف من معه (زوجها إبراهيم عليه السلام)، فقد كانت " سارة " امرأة مسنّة، وزوجها شيخٌ هرم، فكيف يأتيهما الولد ؟! إذن فقد نتج عن هذا الفعل الكلامي المباشر الواحد، دلالات خفيّة عديدة بحسب المقام ومقاصد المتكلم، لا بحسبِ المدلول الموضوع له، وهي التّعجّب والاستغراب والاستبعاد، وكلّها تمثّل قوّة إنجازية مستلزمة، بالإضافة إلى الفعل الإنجازي المباشر: الاستفهام المحض، يقول " الشوكاني " مفسّرًا الآية: « والاستفهام في قولها (أألدُ وأنا عجوزٌ) للتّعجب».[2] وتبعه " الألوسي " إذ يقول : « والمُراد هنا التّعجب، وقد كثُرت هذه الكلمة (يا ويلتي) على أفواه النساء، إذا طرأ عليهنّ ما يتعجّبن منه ».[3]فبعد أن استغربت وتعجّبت من هذه البشرى، ما كان أمامها سوى استبعاد حصولها، فجاء استفهامها « لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله أي أألدُ وكلانا على حالة منافية لذلك ».[4] فالاستبعاد إذن يشكّل معنًا ثالثًا انجَرَّ عن المعنى الثاني للفعل الكلامي : التّعجّب والاستغراب، فبعد أن تحدّث " الزّمخشري " عن إفادة الاستفهام معنى التّعجب، أخرج التّعجّب وهو من قبيل المعنى المستلزم مقاميًّا إلى معنى آخر هو الاستبعاد، فقد تمّ العدول من قبل المتكلم من الاستفهام إلى التّعجب والاستغراب، ومنهما إلى الاستبعاد [5].

---

[1]– أحمد مصطفى المراغي : تفسير المراغي، ج 11، ص 59.

[2]– الشوكاني: فتح القدير، ص 665.

[3]– الألوسي: روح المعاني، ج 12، ص 99.

[4]– المرجع نفسه، ص 100.

[5]– ينظر: الزمخشري : الكشاف، ص 491.

فانطلاقًا من هذا الانتقال، يكون الفعل الكلامي الواحد قد أنجز ثلاث قوى إنجازية، حرفية وغير حرفية، وقد حدث من خلال مجموعة من العمليات أو الخطوات الذّهنية الاستدلالية التي أقامتها " سارة " في عقلها للتّعبير عن مقاصدها، وهذه الخطوات هي:

– في قولها (يا ويلتي) : « لمّا مرّ بفكرها من ألم الولادة وشدّتها ».[1]

– في قولها (أألدُ وأنا عجوز) : عندما تفطّنت إلى أنّ الأمر خارق ومعجزٌ، بغضّ النّظر عن الألم النّاتج عنه « فرجعت بفكرها إلى التّعجب ونطقت بقولها ».[2]

– في قولها : (أألدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيء عجيب) : تقاذفت إلى ذهنها أفكارٌ أخرى أكثر أهمية، وهي أنّها عجوز وزوجها صار شيخًا لا يولد لمثله، ومن ثمّ فإنّ هذا الذي بشّرتمونا به لشيءٌ غريبٌ لم تجر به العادة، فكان أن استبعدت حصول هذه الولادة، وطبعًا فإنّ الاستبعاد هنا بالنسبة إلى أحوالهما لا بالنسبة إلى قدرة الله تعالى، يقول " الزمخشري " : « وهو استبعادٌ من حيث العادة التي أجراها الله ».[3] ويؤكّد " الألوسي " ذلك بقوله : « ومقصدها كما قيل (...)في ضمن الاستعجاب العادي، لا استبعاد ذلك من حيث القدرة ».[4]

25 – الوعيد والتهديد :

❖ قال الله تعالى :﴿ **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ** ﴾ [يوسف، الآية: 73- 74].

أ – سياق الآية :

هذا الخطاب مقطعٌ من المحاورة التي قامت بين "يوسف" عليه السلام وهو عزيز مصر، وإخوته الذين جاؤوا يكتالون، فلمّا وضع "يوسف" صواعه في رحل أخيه، حتى تكون حجّة لاستبقاءه عنده، أقبل عليهم الجنود وقد

[1]– ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز، ج 3، ص 190.

[2]– المرجع نفسه، ص نفسها.

[3]– الزمخشري: الكشاف، ص 491.

[4]– الألوسي: روح المعاني، ج 12 ، ص 100.

استعدت قافلتهم للرحيل، واتهموهم بالسرقة، فما كان من الإخوة إلاّ أن ينكروا ذلك، (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كُنّا سارقين) يوسف -73- أي ما سرقنا قطُّ، فلمّا كان ذلك، وقع السؤال من طرف أصحاب "يوسف" (فما جزاؤه)، أي ما جزاء السارق إن ثبُت كذبكم، وصدَق قولنا[1].

ب – بيان إنجازية الفعل الكلامي الوارد بطريق الاستفهام:

إضافةً إلى الدلالة المباشرة التي تدلُّ عليها البنية السطحية للفعل الكلامي المكوّن من (ما) الاستفهامية، والاسم (الجزاء)، فإنّه يحمل دلالة أخرى غير مباشرة تتمثّل في ذلك الوعيد لإخوة "يوسف" عليه السلام، الذين وقع عليهم فعل السرقة، كما يحمل يحمل قوّةً إنجازية مستلزمة هي التهديد؛ إذ لما بيّنوا براءتهم من هذه التهمة، قال لهم الجنود هذا القول على سبيل التهديد ردًّا عليهم في ادّعاء البراءة، وطلبًا للاعتراف بالفعل الموجّه إليهم، ويتأكّد لنا ذلك إذا علمنا أنّ المستفهم غير جاهل لما يسأل عنه، فهم يعلمون مسبقًا أنّ الصواع في أمتعتهم، وما أرادوا من استفهامهم ذلك سوى تهديدهم ومن ثمّ تحقيق مآربهم في الإبقاء على السارق لديهم. ويندرج فعل التهديد ضمن أفعال الوعد أو الأفعال الالتزامية كما تقدّم، وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل ويُسمّى بالغرض الوعدي، وشرطُ الصّدق فيه هو الإخلاص/ الوفاء، ويمكن بيان كيف تحققت شروط نجاحه فيما يلي:

– سلطة المتكلم على المخاطَب: فأتباع "يوسف" عليه السلام، لهم سلطة على إخوته لسببين: الأول لأنهم جاؤوا يطلبون الكيل وقد كانوا في أمسّ الحاجة إليه ،وفي استطاعتهم منعه عليهم، والثاني لأن فعل السرقة قد ثبُت وأصبحوا في منزلة السارق.

– جدّية المتكلم في كلامه: فأتباع "يوسف" أرادوا إطلاع المخاطَب على ما يترتّبُ عن ارتكاب السرقة وما جزاء فاعلها.

[1]– ينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز، ج 3، ص 265.

– التزام المتكلم بوعده: فما إن ثبُتت السرقة، حتى قام المتكلم بتنفيد ما توعَّد به المخاطَب وهدّدهُ به، «وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترِقَّ سنة »[1]، أي أنه يصبح مملوكًا لمن سرق منه، وكان ذلك ظاهر ما بدا للإخوة.

26– السخرية والاستهزاء والتّهكّم :

❖ يقول الله تعالى :﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود، الآية: 87].

أ – سياق الآية :

هذا الخطابُ موجّهٌ إلى نبيّ الله " شعيب " عليه السلام من طرف قومه (مدين)، بعد أن أمرهم ودعاهم لعبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان، ونهيهُ إيّاهم عن الإنقاص في المكيال والميزان، فقد كانوا مع كفرهم أهل بخسٍ وتطفيف، وأمرهم في المقابل بالإيفاء والعدل والقسط، ونهاهم عن ظلم النّاس أشياءهم، ويشمل ذلك البخس والنقص في المال والعلم...، وختم ذلك بأن أمرهم بعدم الفساد في الأرض، ويشمل ذلك مصالح الدنيا والدّين فكان أن ردّوا عليه بهذا التساؤل قاصدين السخرية والاستهزاء منه، إن كانت صلاته التي يُكثر منها هي ما يدعوه إلى أمرهم بكلّ هذا [2].

ب – بيان البعد التداولي للفعل الكلامي المباشر:

المقامُ في هذا الخطاب، مقامُ سخريةٍ واستهزاء وتهكّم، وقد اقتضى التعبير بفعلٍ كلامي غير مباشر لا تدلُّ عليه الصّيغة التركيبية للعبارة، وهو لفظ الاستفهام (أصلواتك تنهانا)، وقد ساقه المتكلم هنا في غير موضعه الأصلي وأراد به أغراضًا أخرى تدلُّ عليها القرائن السياقية، وكلّها معانٍ ضمنية تُحيل إليها مقاصد المستفهم، فقد أراد القوم التعبير عن استهزاهم وسخريّتهم من هذا الذي يدعوهم إليه " شعيبُ " عليه السلام، فكأنّ لسان حالهم يقول: « أصلاتك التي هي من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التي توارثناها أبًا عن

[1]– الشوكاني: فتح القدير، ص 706.

[2]– ينظر: القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، ج 11، ص 192. والمراغي: تفسير المراغي، ج 12، ص 70.

جدّ ».[1] وعلى ذلك « بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك تأمرك ...».[2] ومنه يكون المعنى الصريح للمنطوق مخالفًا للمعنى الضّمني الذي يقصده، وتكون قوّته الإنجازية مستلزمة مقاميًّا، ولاتدلّ عليها القرائن اللغوية، والدليل على ذلك؛ أي أنّ قصدهم كان التّهكّم به لا الاستفسار، هو معرفتهم أنّ « إسناد الأمر إلى الصلوات غير حقيقي؛ إذ قد علم كلّ العقلاء أنّ الأفعال لا تأمر ».[3] فهم لم يريدوا معرفة من يأمر " شعيب " بأن ينهاهم عمّا نهاهم عنه، وإنّما « قصدوا بقولهم : أصلاتك تأمرك، السخرية والهزأ، فوقع الاستفهام على غير حقيقته ».[4] وقد أكّدوا على هذا المراد من خلال إتباع ذاك الاستفهام بقولهم (إنّك لأنت الحليم الرّشيد) فهي « استئناف تهكّم آخر ».[5]ومعناه : « إنّك لأنت الحليم الرشيد المعروف الطريقة في هذا الباب، فكيف تنهانا عن دينٍ ألفيناه من آبائنا وأسلافنا، والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممّن كان موصوفًا بالحلم والرّشد ».[6] فهم يسخرون منه لإتيانه هذا الفعل، رغم ما يحمله من هذين الصّفتين، وينكرون أن يأتي صاحبهما بمثل ما أتاهم به « فساقوا الكلام مساق الطّنز* وجعلوا الصلاة آمرةً على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمرك به (...)باطلٌ لا وجه لصحّته ».[7]

وهكذا نلاحظ أنّ المتكلم استطاع أن يعبّر أكثر ممّا يقول، وأفاد عدّة معانٍ لم يصرّح بها بظاهر اللّفظ، وإنّما ساقها بصيغة الأسلوب الاستفهامي التّهكمي، الباعث على تقوية دلالة الخطاب، وجعل أثره أقوى (بيان مقدار السخرية)، من لو أنه سخر من مخاطَبه مباشرة، وهذه من أبرز ميزات الفعل الإنجازي غير المباشر.

---

[1]- أبو السعود : إرشاد العقل السليم إلى مرايا القرآن الكريم، ج 4، ص 232.

[2]- المرجع نفسه، ص ن.

[3]- ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج12، ص 141.

[4]- الفخر الرازي : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 18، ص 44.

[5]- ابن عاشور : المرجع السابق، ص 142.

[6]- الفخر الرازي: المرجع السابق، ص 45.

[7]- الزمخشري: الكشاف، ص 494.

* الطّنز: كلّمَهُ باستهزاء فهو طنّاز.

الخاتمة

في ختام هذا البحث الموسوم بـ: **" الاستفهام البلاغي وأبعاده التداولية في سورتي هود ويوسف "**، الذي قمنا فيه بتحليل البعد التداولي للخطاب الاستفهامي في السورتين، توصلنا إلى مجموعة من النتائج كان من أهمها:

– الاستفهام واحدٌ من الأساليب الإنشائية الطلبية، التي تحتلُّ مساحة شاسعة في الخطاب القرآني، ويراد به صراحة طلب الفهم.

– يبلغ عدد أدواته إثنتا عشرة أداة، تنقسم إلى حروف وأسماء، فأما الحروف فهي الهمزة وهي أصل الباب، إضافة إلى هل، وأما الأسماء فهي: من، ما، ماذا، أي، كم، كيف، متى، أيّان، أين، أنّى، لكلّ منها دلالتها وخصائصها التي تنفرد بها، كما تحتلّ صدارة الكلام.

– يَرِدُ الاستفهام للتّصور، وهو تعيين المفرد، ويأتي للتصديق، ويُطلب به معرفة النسبة.

– كانت دراسة النحويين لأسلوب الاستفهام، دراسة نحوية تركيبية في مجملها، وإن كان كثيرٌ منهم قد تطرّقوا إلى إفادته معانٍ أخرى مجازية، فيما تناوله البلاغيون ضمن مبحث من مباحث علم المعاني، وهو باب الخبر والإنشاء، وأطلقوا عليه تسمية " تجاهل العارف"، وأفاضوا في الحديث عن أغراضه البلاغية، التي تُحيل إليها مختلف قرائن المقام.

– يحصل الاستفهام البلاغي، حين يخرج عن مقتضى الظاهر، إلى عدّة معانٍ وأغراض لا يدلُّ عليها ظاهر اللفظ، وإنّما تُفهم من سياق الكلام، ومقاصد المتخاطبين.

– لا يمكن الكشف عن جماليات هذا الأسلوب البلاغي، إلاّ من خلال تأمّل السياق القرآني الذي تضمّنه، لأنّ هذا الأخير له فاعلية كبرى في تفجير دلالته الخفية.

– التداولية مقاربة لسانية حديثة، تُعنى بدراسة اللغة الإنسانية أثناء الاستعمال، وعلاقتها بمستخدميها والمؤوّلين لها، من أجل تحقيق التواصل والتغيير على مستوى الواقع.

– يقوم البحث التداولي على عدّة أبعاد ومفاهيم لدراسة الظاهرة اللغوية، تساهم إسهامًا فاعلاً في تحليل الخطابات، وقراءتها من منظور جديد يتجاوز المستوى الشكلي، إلى ما هو سياقي واجتماعي، يساعد في تحديد مقاصد المتكلمين، وتأويل المتلقّين للخطاب، من أشهر هذه المفاهيم : الفعل الكلامي وقوته الإنجازية، وما ينتج عنه من مفاهيم ثانوية كالاستلزام التخاطبي، والافتراضات المشتركة بين المتحاورين، وهي الآليات التي يتوسلها الخطاب القرآني للإقناع والتأثير، وبيان الحقائق.

– تشترك كل من البلاغة العربية، والتداولية في الاعتماد على اللغة بعدّها وسيلة لممارسة الفعل على المتلقي، في سياقات مخصوصة، فكلاهما يهتم بعملية التّواصل والظروف الخارجية المتحكمة فيها، قبل التّلفّظ بالخطاب وأثناءه، وإلى غاية إنجازه.

– كل من التحليل البلاغي والتداولي، يولي عناية كبيرة بالسياق ودوره الفعّال في استخلاص المعنى، والكشف عن مقاصد المتكلمين.

– تكافئ العبارة اللغوية العربية " لكل مقام مقال " عبارة أخرى تداولية هي " المعنى السياقي" أو " معنى المتكلم".

–تقابل ثنائية الخبر والإنشاء، ضمن الدرس البلاغي العربي، ثنائية الوصف والإنجاز، في الدرس التداولي الغربي، وبعدّه أسلوبًا إنشائيا ينتمي إلى دائرة الطلب، فإنّ الاستفهام يمثل فعلاً كلاميا إنجازيا.

– نظرية الفعل الكلامي هي الرّكن الأساسي للتداولية؛ إذ تقوم بدورها على مفهوم الفعل الإنجازي المباشر، وغير المباشر، الذي يراد به إنجاز فعل ما من خلال عملية التّلفّظ.

– الاستلزام الحواري واحدٌ من الآليات التداولية، يسعى إلى الكشف عن المعاني المضمرة، التي يستلزمها الخطاب في ظروف معينة.

– يمثّل الاستفهام فعلاً كلاميا غير مباشر، بعدّه واحدًا من الآليات التداولية التوجيهية، التي يعني بها المتكلم أكثر مما يقول، ويهدف بواسطتها إلى التأثير في المخاطب.

– تشكّل سورة هود ويوسف نموذجًا خصبًا، تجسّدت فيهما سمات الفعل الكلامي الإنجازي، وذلك لما تشهدانه من اختلافٍ في المواقف الخطابية بين أطراف الخطاب، إضافة إلى تنوّع العواطف، والأهمّ تعدّد المقاصد.

– لقد غلب استعمال القوة الإنجازية الضمنية للاستفهام في سورتي هود ويوسف، أكثر من القوة الإنجازية الصريحة، فأنجز معانٍ مستلزمة، فيما يعرف بمعنى المتكلم، وذلك بوجود جملة من القرائن المقامية.

– بلغ عدد الآيات التي نحى فيها الاستفهام منحى تداولي، إحدى وثلاثين (31) آية، بمعدّل سبع عشرة(17) آية في سورة " هود "، وأربع عشرة (14) آية في سورة " يوسف ".

– المعاني الخفية التي أنجزها الفعل الكلامي، بصيغة الاستفهام في كلتا السورتين، تتمثّل في: الإنكار، التقرير، النفي، التوبيخ والعتاب، التقريع، التعجب والاستغراب، السخرية والاستهزاء، التهكم، الاستبعاد، الأمر والحثّ، الترغيب، التنبيه على الضلال.

– من خلال عملية رصد الآيات التي خرج فيها الاستفهام عن أصله، وجدنا أنّه قلّما يجيء بمعنى واحد؛ إذ كثيرا ما يحمل معنيين معًا أو أكثر، فيأتي الإنكار مصاحبًا للنفي والتعجّب، ويأتي التقرير متضمّنا معنى التوبيخ والعتاب، ويجيء التعجب مع الاستبعاد، وغيرها كثير.

– ساعدت الأبعاد التداولية التي خرج إليها الاستفهام، في تبليغ مضامين الرسالة والدعوة إلى التوحيد، وإحكام الحجة أمام الخصم، ووصف القرآن بالإحكام والتفصيل، وإثبات إعجازه، وسرد القصص القرآني عبرة وعظة لأولي الألباب.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم

أوّلا: التفاسير القرآنية:

1) الألوسي؛ شهاب الدين السيد محمود البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح : علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/ 1994م.

2) -البغوي؛ أبو محمد الحسين بن مسعود: تفسير البغوي- معالم التنزيل- ، تح: محمد عبد الله النصر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، السعودية، دط، 1411هـ/1990م.

3) البقاعي؛ برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر: نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، 1395هـ/1975م.

4) أبو حيّان؛ محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي: تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ/ 1993م.

5) الزّمخشري؛ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح : خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ/ 2009م.

6) أبو زهرة، محمد أحمد مصطفى: زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1422هـ/ 2001م.

7) الشنقيطي؛ محمد الأمين بن محمد: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ط1، 1408هـ/ 1988م.

8) الشوكاني؛ محمد بن علي بن محمد: فتح القدير، تح: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ/ 2007م.

9) الصابوني؛ محمد علي: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط4، 1402هـ/1981م.

10) الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح : بشار عواد معروف، عصام فارس الحرشاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/ 1994 م.

11) ابن عاشور؛ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1404هـ/ 1984م.

12) -ابن عطية؛ أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/ 2001م.

13) -طنطاوي، محمد سيد ؛ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1412هـ/ 1996م.

14) فخر الدين الرازي؛ محمد بن ضياء الدّين عمر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1420هـ/1990م.

15) القرطبي؛ أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م.

16) محمد عزة دروزة؛ التفسير الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1421هـ/ 2000م.

17) المراغي؛ أحمد مصطفى: تفسير المراغي ،مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط1، 136هـ/1946م.

18) -وهبة الزحيلي؛ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط10، 1430هـ/ 2009م.

ثانيا: المعاجم اللغويّة:

19) أحمد بن فارس الرازي؛ أبو الحسين بن زكريا: مقاييس اللغة، تح: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1429هـ/2008م.

20) الزّبيدي؛ محمد مرتضى الحسيني:تاج العروس، تح:عبد المنعم إبراهيم وكريم محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م.

21) -مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 1425هـ/2004م.

22) ابن منظور؛ جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم:لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ /2005م.

ثالثا: الكتب باللغة العربية:

23) -أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1426هـ/2005م.

24) -أحمد بن فارس الرازي؛أبو الحسين بن زكريا: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح:مصطفى الشويمي، مطبعة بدران، بيروت، لبنان، دط، 1384هـ/1963م.

25) -أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية -مدخل نظري- دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا،ط1431،2هـ/ 2010م.

26) -أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1429هـ/ 2008م.

27) -أحمد نوفل: سورة يوسف-دراسة تحليلية- دار الفرقان، عمان، الأردن، ط1، 1409هـ/1989م.

28) -أحمد هاشمي: جواهر البلاغة في المعاني و البيان و البديع، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دس.

29) البسيوني عبد الفتاح: علم المعاني– دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط4، 1436هـ/ 2015م.

30) -بشرى البستاني: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب، لندن، إنجلترا، ط1، 1473هـ/ 2012.

31) -بهاء الدين محمد يزيد: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي-تبسيط التداولية-، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1471هـ/ 2010م.

32) -التفتازاني؛ سعد الدين مسعود بن عمر: المطوّل-شرح تلخيص مفتاح العلوم-تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط3، 1434هـ/2013م.

33) الجرجاني؛ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي : دلائل الإعجاز، تح : محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، دط، 1424هـ/ 2004م.

34) ابن جني؛ أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، دط، 1371هـ/1952م.

35) -جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1437هـ/2016م.

36) -حافظ إسماعيل علوي: التداوليات-علم استعمال اللغة- عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط2، 1435هـ/2014م.

37) الخطيب القزويني؛ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد : الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبدالمنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث،القاهرة،مصر،ط3، 1413هـ/1993م.

38) -خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية-مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم-، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 1430هـ/2009م.

39) الرماني؛ أبو الحسن علي بن عيسى: معاني الحروف، تح: عرفان حسونة الدمشقي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دس.

40) الرماني؛ أبو الحسن علي بن عيسى: النّكت في إعجاز القرآن، تح:محمد حلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف،القاهرة،مصر،ط3، 1397هـ/1976م.

41) الزجاجي؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق: حروف المعاني، تح: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1406هـ/1986م.

42) السبكي؛ بهاء الدين: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،ط1، 1423هـ/2003م.

43) ابن السراج؛ أبو بكر محمد بن السري بن سهل: الأصول في النحو العربي، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1417 هـ/1996م.

44) -السكاكي؛ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ/ 1987م.

45) سيد هاشم الطبطبائي : نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، دط، 1415هـ/ 1994م.

46) السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري : الإتقان في علوم القرآن، تح: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1469هـ/ 2008م.

47) السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري : الأشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دس،

48) الشريف الجرجاني؛ أبو الحسن علي بن محمد بن علي : حاشية السيد على المطول،تح: رشيد أعرضي، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1، 1428هـ/2007م.

49) -شمس الدين الذهبي؛ محمد بن أحمد بن عثمان : سير أعلام النبلاء، تح: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط11، 1417هـ/1996م.

50) -صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الكويت، دط، 1413هـ/1992م.

51) -طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التّراث، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، ط2، دس.

52) -عبد الرحمن الميداني: البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1416هـ/1996م.

53) -عبد السلام هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 1421هـ/2001م.

54) عبد العزيز عتيق: علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ/ 2009م.

55) -عبد الكريم محمود يوسف: أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم -غرضه وإعرابه- مطبعة الشام، الشام، سوريا، ط1، 1421هـ/2000م.

56) -عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية- ، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ/ 2004م.

57) -عبده الراجحي: التطبيق النحوي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ/2004م.

58) -علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة-البيان.المعاني.البديع- ،دار المعارف، القاهرة، مصر،دط، دس.

59) -علي الجارم ومصطفى أمين: النحو الواضح في قواعد اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1403هـ/1983م.

60) -علي بن محمد الهروي: الأزهية في علم الحروف، تح: عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، ط2، 1413هـ/1993م.

61) -عياشي أدرواي: الاستلزام الحواري في التداولي اللساني-من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها- منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 1432هـ/ 2011م.

62) -فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، إربد، الأردن، ط4، 1417هـ/1997م.

63) -فوز نزّال: الحوار في القرآن الكريم – دراسة وظيفية أسلوبية -، دار هرّة الحق للنشر، عمان، الأردن، ط1، 1424هـ/2003م.

64) -قادر حسين: فن البديع، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ/1983م.

65) -قطبي الطاهر: الاستفهام البلاغي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1415هـ/1994م.

66) -قطبي الطاهر: الاستفهام النحوي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1415هـ/1994م.

67) -قيس إسماعيل الأوسي: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، بيت الحكمة، بغداد، العراق، دط، دس.

68) المبرد؛ أبي العباس محمد بن يزيد : المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث، القاهرة، مصر، ط2، 1386هـ/1965م.

69) محمد جابر فياض:البلاغة والفصاحة لغة واصطلاحا،دار المنارة،جدة،السعودية،ط1، 1409هـ/1989م.

70) -محمد علي أبو حمدة : في التذوق الجمالي لسورة يوسف، دار البشير، عمان،الأردن،ط1، 1406هـ/1985م.

71) -محمد يونس علي : المعنى وظلال المعنى-أنظمة الدلالة في العربية-، دار المدار الإسلامي، بنغازي، ليبيا، ط2،

72) 1428هـ/2007م.

73) -محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 1423هـ/2002م.

74) -محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1417هـ/1996.

75) -محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) – دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ -، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1433هـ/ 2012م.

76) -مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب-دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان ط1، 1426هـ/2005م.

77) -منيرة محمد ناصر الدوسري:أسماء سور القرآن وفضائلها، تق: فهد الرومي، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ/2005م.

78) -ابن هشام الأنصاري، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك ومحمد حمد الله، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 1384هـ/1964م.

79) -أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل :الصناعتين-الكتابة والشعر- تح: محمد البجاوي ومحمد إبراهيم، دار الفكر العربي،القاهرة،مصر،ط1، 1371هـ/1952م.

رابعا: الكتب المترجمة:

80) آن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.

81) آن روبول، جاك موشلار: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، تح: خالد ميلاد، دار سيناترا، تونس، دط، 1471هـ/ 2010م.

82) -جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة -كيف ننجز الأشياء بالكلام- تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1412/ 1991م.

83) -دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر:محمديحياتن، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 1428هـ/ 2008م.

84) -فان دايك : النص والسياق-استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي- تر: عبد القادر قنيني، افريقيا

85) الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1421هـ/ 2000م.

86) فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1، 1428هـ/ 2007م.

خامسا: الدوريات:

1-الأطروحات والرسائل الجامعية:

87) -خلوفي قدور: مستويات الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني- سورة الكهف أنموذجا- (أطروحة دكتوراه في اللسانيات التداولية)، إشراف: بن عيسى عبد الحليم، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2014م/2015م.

2- المقالات المنشورة في المجلات العلمية:

88) مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلة نصف سنوية، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، مج 9، ع 3، 2020/9/15م.

89) مجلة الباحث، مجلة سنوية، جامعة قاصدي مرباح، ع2، ورقلة، الجزائر، 2003/12/31م.

90) مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، مجلة فصلية ديوان الوقف السني ، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، مج 2012، ع 27، 31/ 12 / 2012م.

91) مجلة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية، مجلة نصف سنوية، جامعة الزيان عاشور، الجلفة، الجزائر، ع4،(2017/12/1).

92) -المجلة العربية للنشر العلمي، مجلة دورية، رماح، الأردن، ع38، 2 كانون الأول 2021م.

93) مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مجلة نصف سنوية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، ع2، ديسمبر 2017.

94) مجلة كلية الآداب واللغات، مجلة دورية، كلية الآداب، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع22، ج1،جانفي 2018م.

95) مجلة اللغة والآداب مجلة نصف سنوية، قسم اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، ع1، 1جانفي 2006م.

96) مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مجلة دورية، جامعة مؤتة، مؤتة، الأردن، مج2، ع2، 31/ ديسمبر 1987.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	
مقدمة	أ-د
المدخل	17-06
الفصل الأول: الاستفهام في الدراس البلاغي والبحث التداولي	20
المبحث الأول: الاستفهام في الدرس البلاغي	21
المطلب الأول: تعريف علم البلاغة وأهميته	26-21
المطلب الثاني: جهود البلاغيين في دراسة أسلوب الاستفهام	31-27
المطلب الثالث: الأغراض البلاغية للاستفهام	35-31
المطلب الرابع: جمالياته	37-36
المبحث الثاني: الاستفهام في البحث التداولي	38
المطلب الأول: تعريف التداولية	41-38
المطلب الثاني: نشأتها وتطورها	45-41
المطلب الثالث: مهامها وأهميتها	47-45
المطلب الرابع: نظرية الفعل الكلامي	58-47
المطلب الخامس: نظرية الاستلزام الحواري	63-58
الفصل الثاني: مقاربة تداولية للاستفهام البلاغي في سورتي "هود" و"يوسف"	64
المبحث الأول: في رحاب السورتين	65
المطلب الأول: سورة هود: تعريفها، تسميتها، فضلها، أسباب نزولها مناسبتها لما قبلها، محاورها ومقاصدها	69-65
المطلب الثاني: سورة يوسف: تعريفها، تسميتها، فضلها، أسباب نزولها، مناسبتها لما قبلها، محاورها ومقاصدها	73-69
المبحث الثاني: تداولية الاستفهام البلاغي في سورة هود ويوسف	129-74
الخاتمة	134-132
قائمة المصادر والمراجع	143-136
فهرس المحتويات	145

ملخص الدراسة:

يُعالجُ هذا البَحث واحِدًا من الأسَاليبِ الإنشائيّة الطلبيّة الأكثر ورودًا في البناء القرآني، وهو أسلوب الاستفهام، الذي يكون تارةً حقيقيّا محضًا، وتارةً أخرى يأتي محمّلاً بمعانٍ أخرى بلاغيّة، تُفهمُ من السيّاق وقرائنه، وهو ما تناولته النظرية التداولية الحديثة تحت مسمّى الفعل الكلامي المباشر وغير المباشر، وما يترتّبُ عنه من أبعادٍ تداوليّة، أُتُّفِقَ على تسميتها بـ "معاني المتكلم"، أو "المعاني السياقية"، ممّا يُشكّلُ نقطة التقاءٍ بين الدّرس البلاغيّ العربيّ، والبحث التداوليّ الغربيّ، في اهتمامهما بالسياق ودورِهِ الفعّال في استجلاء وتحديد دلالات النص، حيث حاولتُ استثمار آليّات التحليل التداولي للكشف عن المقاصد الحقيقيّة التي تكمنُ وراءَ الاستفهام البلاغيّ في سورتيّ "هود"و"يوسف"، مدوّنة هذه الدراسة، وذلك من خلال رصد السياقات والظروف الخارجية، المؤطّرة للعملية التخاطبية، وكل ما من شأنه أن يسهمَ في الكشفِ عن الدلالات المقصودة من التركيب الاستفهامي.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الإنشاء، الاستفهام، التداولية، الإنجاز، الفعل الكلامي، التّأثير، الإقناع.